سِجنُ الطَّاووس

رواية

محمد العوض

obeikandl.com

محمد العون: سجن الطاووس (رواية)

الحضارة للنشر
7 شارع أبو السعود – الدقى 12311 – القاهرة

Al-Hadara Publishing
7 Abou El-Seoud Street
Dokki 12311, Cairo, Egypt

Tel.: (20-2) 37 61 94 39
Mobile: (20-122) 316 48 67

E-mail: ask@alhadara.com
www.alhadara.com

الطبعة الأولى: مارس 2014

رقم الإيداع بدار الكتب 2014/ 4783
I.S.B.N. 978-977-476-192-9

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

obeikandl.com

سِجنُ الطَّاووس

obeikandl.com

obeikandl.com

1

من بعيد لاح القصر بمبناه الذى يتراوح لونه بين الأصفر الغامق والبنى الفاتح، وسط مساحة اللون الأخضر للحقول الشاسعة.
قبل ساعة كانت السيارة التى تتجه الآن نحو القصر وتحمل لوحتها أرقاماً حكومية، تعارك الزحام عند مخرج المدينة.
خرجت بعد معاناة من منطقة تقاطعات مزدحمة.. لتصل بعد جهد إلى الطريق الزراعي الذى يخترق الحقول، وتسير بعد ذلك بين حركة البناء والتشييد القائمة على قدم وساق على جانبى الطريق، مبانٍ لمختلف الأنشطة الإنسانية وغير الإنسانية، عمارات سكنية وشركات ومؤسسات ومحلات ومطاعم ومقاه وورش، تُبنى بسرعة وعلى عجل تسابق الزمن لتلتهم أكبر قدر ممكن من الأراضى الزراعية!
بعد الكثير من الكيلومترات قطعتها السيارة على مهل، بسبب حركة المرور الكثيفة، أخذ الطريق يصفو وتنقشع المبانى مع الابتعاد عن المدينة ليتجلى لون الحقول الأخضر ويملأ الأفق.
تركت السيارة الطريق الرئيسى ودخلت إلى طريق إسفلتى فرعى، وسارت لمسافة ليست قليلة على الشارع الضيق المرصوف جيداً حتى بلغت سور القصر، ظهر بوضوح أن

السور المبنى بالطوب وتعلوه الأسلاك الشائكة التى تتخللها على مسافات محددة أسياخ حديدية مسننة الأطراف كالحراب، حديث نسبياً وأنه بُنى فى زمن لاحق على بناء القصر وبطراز معمارى مخالف، أرخص وأردأ، وبدا غير متجانس مع البوابة الحجرية الهائلة الحجم التى تشبه قوس النصر والمزينة بالنقوش والزخارف ومازلت محتفظة برونقها، برغم أن يد الزمن طالتها فى أكثر من موضع، خاصة فى حوافها العلوية التى ظهر فيها عدة شروخ وتشققات فى بعض أحجارها.

بعد نهاية السور وفى منطقة خلف القصر بدت على البعد بيوت العزبة القريبة، مجموعة عمارات متلاصقة من ثلاثة وأربعة طوابق من الطوب الأحمر بذيئة المنظر، تفصل بينها وبين الحقول مساحة من الأرض تستقر عليها تلال القمامة، وعدد مهول من الأطفال الحفاة يجرون هنا وهناك ويملأ صياحهم وزعيقهم الفضاء ينتشرون فى المكان ويلعبون حول القمامة بسعادة.

وقفت السيارة الحكومية أمام البوابة لعدة دقائق تحقق فيها أحد عساكر الحراسة من شخصية ركابها وتفحص بطاقاتهم الوظيفية قبل أن يُشير بفتح الباب الحديدى المحكم البالغ الضخامة والمصنوع من الحديد المجدول على شكل زخارف نباتية.

عبرت السيارة البوابة وسارت على الممر الإسفلتى الطويل المؤدى للقصر عبر الحديقة الشاسعة، على الجانبين تتوزع بعشوائية أحواض للزهور ونباتات الزينة تعلوها الأتربة، ويبدو عليها الإهمال كأنها زرعت كيفما اتفق على أرض الحديقة الجرداء، التى تتناثر عليها بقع من النجيل شاحب الاخضرار، بينما تنتظم أشجار عملاقة مستوردة من شتى بلاد العالم، بدت غريبة المنظر تلفت الانتباه على الفور بطبيعتها المغايرة للمألوف، بأحجام وأشكال أوراقها وبألوانها التى تتنوع فيها درجات الأخضر والأصفر والأحمر، حتى تفرعات أغصانها وأخشاب جذوعها تبدو مختلفة، بالقرب من أحد الأشجار ثمة كشك خشبى متهالك مازال يحمل أثر اللون الأبيض، ويبدو أحد هذه الأكشاك التى كانت تستخدم فيما مضى لتناول الشاى والمرطبات.

عبرت السيارة بوابة أخرى تبدو نسخة مصغرة من البوابة الخارجية، لكنها ما تزال محتفظة برونقها ويظهر على أحجارها ونقوشها أثر العناية، تفضى إلى القصر مباشرة عبر ممر مرصوف بالحجارة يخترق حديقة منسقة باذخة الخضرة يخيم عليها الهدوء، لا تلمح العين ذرة تراب على أوراق النباتات وأزهارها وخشب أشجارها، بمجرد عبور البوابة الثانية شعر ركاب السيارة أنهم انفصلوا عن العالم الذى كانوا فيه، أو الذى

جاءوا منه، وأنهم أصبحوا فى عزلة، كأنهم دخلوا عالماً آخر، كل ما فيه يتميز بالأناقة والجمال والنظافة، ويهيمن القصر الرابض بشموخ فى وسط حديقته الخاصة على المشهد بأكمله.

توقفت السيارة فى المكان المخصص للانتظار، ساحة واسعة محاطة بالأشجار تقع فى الناحية الخلفية ويُطل عليها القصر، ركنت فى نهاية الساحة بجوار عدة سيارات أخرى معظمها سيارات حكومية وبعضها عربات جيب عسكرية.

نزل ثلاثة رجال من السيارة توحى هيئتهم بالاحترام بالرغم من تواضع ملابسهم وبساطتها، لا تخطئ العين فى كونهم موظفين حكوميين من هؤلاء الذين يمتلكون السلطة والفقر معاً، ويبدو جلياً من تواضع مظهرهم أنهم لا يختلسون ولا يرتشون إما لأنهم لا يستطيعون ذلك، بحكم أن وظائفهم لا تتيح لهم الفرصة، ولا يوجد أمامهم مجال للتعامل مع المال من الأساس، أو لأنهم – وهذا احتمال ضعيف ويوجد بنسبة بسيطة للغاية – شرفاء!

تقدم أكبرهم سناً الذى يبدو فى منتصف الخمسينيات من عمره وتبعه الآخران، أحدهما تجاوز الأربعين بقليل والآخر ربما لم يبلغ منتصف الثلاثينيات بعد.

نظروا إلى مبنى القصر الذى بدا على القرب أكثر مهابة وأكبر حجماً مما قدروا، بجدرانه الخارجية المحتفظة بأحجارها الصلدة التى تتنوع ألوانها ما بين البنى الضارب إلى الحمرة والأصفر

الغامق، يرتفع عالياً لثلاثة طوابق يفصل بين كل طـــابق وآخـــر حزام من الأحجار البارزة، تعلو كل حزام منهـــا نوافـــذ كبيـــرة مؤطرة بأحجار صغيرة الحجم يميل لونها إلى الحمـــرة، وعلـــى زوايا الأركان تبرز شرفات صغيرة مزينة بتماثيل رخامية لأسود وخيول بأشكال متعددة، تحيط بجوانب القصر ثلاثة أبراج ترتفع من الأرض إلى ما بعد السطح تعلوها قباب ضخمة، تعطى منظر القصر بعداً أسطورياً!

أما الواجهة فمُغطاة بالزخارف المجســـمة والتماثيـــل المنحوتـــة والنقوش بشكل رأى الرجال الثلاثة أنه ترف زائد عن اللـــزوم، إلى حد ما شعروا بالانقباض، وبشكل خفى لم يســـتطع أحـــدهم تفسيره تبدى لهم الجو بالقرب من القصر غير مريح للنفس برغم البذخ والفخامة وثراء المبنى الهائل الـــذى تحـــيط بـــه مســـاحة عريضة من النجيل زاهية الاخضرار تتوزع فيها أشجار النخيل الملكى بنظام هندسى بديع.

على الجانب الأيسر للسلم الرخامى العريض المـــؤدى لمـــدخل القصر توجد أربع غرف بدروم واطئة، يفضى إليها سلم رخامى جانبى من خمس درجات يهبط إلى ممر عـــريض يمـــر أمـــام الغرف، يبدو أنها تستخدم من قديم كمكاتب لموظفى القصر، كان هناك عدد من الرجال كبار السن يرتدون الزى المميز للجنابنية!

يتوزعون فى الحديقة المقابلة للمدخل وهم يؤدون عملهم بهـدوء وببطء يتناسب مع أعمارهم المتقدمة.

بجانب باب أحد هذه الغرف يجلس ساعٍ ضخم الجسد يبدو فـى منتصف العمر، قام بمجرد أن لمح الزوار وهم مقبلون، تحـرك ناحية باب الغرفة وأطل برأسه داخلها وأخبر رئيسـه بوصـول أعضاء اللجنة، خرج من الغرفة رجل طويل القامة أنيق المظهر إلى حد كبير أبيض الشعر لكنه يبدو شاباً، مشى بخطوات سريعة نحو الرجال الذين توقفوا عند بداية السلم الجانبى، وقد أصـابهم هذا الارتباك الطفيف الذى يصيب الإنسان عادة عنـدما يـدخل مكاناً غريباً عليه لأول مرة، ولا يعرف أين عليه أن يتجـه ولا من يسأل ليصل إلى مقصده، لكن أكبرهم سناً ما لبـث أن تقـدم بخطوات ثابتة، لم يكن توقفه بسبب الارتبـاك بقـدر مـا كـان لاستعادة ذكرى بعيدة.

– أهلاً يا دكاترة.. شرفتم القصر.

صافحهم الرجل مرحباً ومعرفاً بنفسه.

– المهندس كمال.. مدير حدائق القصر.

فى هذا الصباح كان يعانى ألماً فى أحد ضروسه مما جعله يبدو ممتعضاً بعض الشىء وهو يرحب بضيوفه الرسميين، تقدمهم إلى غرفة مكتبه التى كان أثاثها الحكومى الرخيص متناقضاً مع ثراء القصر، أمام المكتب المعدنى عدة كراسى خشبية وفى مواجهتـه

كنبة جلدية قديمة، وعلى جانبيه توجد عدة دواليب وأرفف معدنية مكتظة بالملفات والدوسيهات و.. الكتب، كتب كثيرة ومتنوعة تتراص على الرفوف القريبة من المكتب الذى كان عليه كتابان أحدهما مفتوح.

قال المهندس كمال مبتسماً بعد أن جلس الرجال على مقاعدهم، موجهاً حديثه إلى أكبر الدكاترة الثلاثة سناً.

– آسفين الطريق طويل.. ثلاثين كيلو خارج المدينة.

– المشكلة فى الزحام، لقد قطعنا هذه المسافة فى ساعتين!

– تخيل يا دكتور أننى والزملاء الذين يعملون هنا نعانى هذا الزحام يومياً، فى بداية عملى هنا كان هذا المشوار لا يزيد عن عشرين دقيقة، أما الآن فكما ترى!

– كان الله فى العون.

– الله يحفظك، قبل أن نبدأ ماذا تشربون أولاً؟

– لا داعى للتعب والتكليف.

قال الدكتور وهو ينظر حوله ويرى رثاثة الأثاث والمكاتب.

– لا يمكن بعد هذا المشوار، لابد أن تشربوا شيئاً قبل أن نبدأ العمل.

– إن كان ولا بُد.. نشرب شاى.

– حاضر، تحت أمرك.

نادى كمال على بدر ساعى مكتبه وطلب منه عمل الشاى.

مال الرجل الأربعينى على الدكتور وهمس فى أذنيه بشىء فقال الدكتور على الفور.

– لو سمحت شاى كمان لرزق السائق، أحسن يعمل لنا مصيبة وإحنا راجعين!

– طبعاً.. طبعاً.

تذكر الدكتور ممدوح بأسى أن السائقين انقلب حالهم خلال السنوات الأخيرة، خرجوا عن حدود الاحترام وتمردوا على قيم ومبادئ استقرت لزمن طويل، شهدها بنفسه حينما كان شاباً وقبل أن تتردى الأحوال ويعصف الزحام والفقر بالجميع، أصبح السائقون يتطاولون على رؤسائهم ويتحكمون فيهم خلال مأموريات السفر، ويفرضون عليهم البقشيش فرضاً على أى مشوار يخرجون معهم فيه وإلا كانت العواقب وخيمة، أبسط شىء أن يدعى السائق إذا لم يأخذ مقدماً حق الطلعة وينال إكراميته كاملة أن السيارة تعطلت يا دكاترة، وبالطبع لابد أن يحدث هذا العطل فى طريق العودة، عندما يكون التعب قد حل على الركاب البخلاء الذين يقبض الموظف منهم كل شهر تل فلوس على قلبه، ويستخسر كام جنيه فى السائق الغلبان ولا يقدر تعبه وجلسته خلف الدريكسيون طوال النهار فى المأموريات والسفريات التى لا تنتهى!

– يا رزق خلى عندك دم وشغل العربية خلينا نروح.

– يا دكتور العربية عطلت، أعمل إيه أنا؟ العربية قديمة وتحتاج تصليح!

– يا ابنى العربية موديل ثلاث سنوات فاتت ولسه جديدة.

– سعادتك العربية تشتغل كل يوم من غير صيانة، وأنا طلبت تصليحها أكثر من مرة لما غلبت.

– طيب حاول تشغلها مرة ثانية علشان خاطرى.

– ولو الموتور احترق يا دكتور، أنا ينخرب بيتى، العربية عهدة علىّ وأنا مسئول عنها، سيادتك لا مؤاخذة لن تتحمل المسئولية..

رد الدكتور ممدوح بعصبية وقد ضاق بعبثية الموقف وسخافته.

– أنت كذاب وبنى آدم غير محترم..

– لا يا دكتور.. بعد إذنك، سيادتك تقدر تركب الآن أى سيارة أجرة توصلك للبيت وترتاح هناك من تعب اليوم، لكن أنا سأنام هنا على الطريق فى الخلاء حتى الصباح.. لا أستطيع ترك السيارة، يعنى أنا سأتحمل المسئولية وأتعرض للبهدلة وأنام فى الشارع.. وبعد كل هذا حضرتك تغضب وتزعق لى وتشتمنى!

كل هذا بسبب العشرة جنيه التى عاند الدكتور ولم يضعها فى يد رزق قبل أن يركب السيارة فى الصباح، دفع أضعافها وهو يتنقل بين وسائل المواصلات ليرجع إلى بيته هو والزملاء الذين كانوا معه فى المأمورية، غير البهدلة والوقوف على طريق السفر فى انتظار سيارة أجرة يرضى سائقها أن يقلهم.

بالطبع عرف بعدها أن رزق أدار السيارة وعاد بها بمجرد ركوبهم وتحركهم من الطريق، وعندما اشتكاه رسمياً وهو مغتاظ، قال رزق فى التحقيق.

– وأنا اعمل إيه؟ العربية دارت بعد كده من عند ربنا لما جربت أشغلها.

***

بعد شرب الشاى قام مدير الحدائق وهو يجز على ضرسه واصطحب زواره لجولة فى المكان، خرجوا من المكتب إلى حديقة القصر، قال المدير وهو يُشير للمبنى، هذا القصر كان ملكاً لأميرة من العائلة الملكية، كانت شديدة الثراء وتمتلك عدة عزب تصل مساحتهم لأكثر من ثلاثة آلاف فدان، منهم هذه العزبة الأثيرة لديها التى كانت مساحتها سبعمائة فدان تقريباً، وتمتاز عن بقية عزبها بقربها من العاصمة وبوجود مزرعة الخيل بها، ورثت الأطيان عن والدها وبنت القصر فى هذا المكان، يُقال إن والدها الأمير كان له هنا قصر ريفى صغير لكنها هدمته لتبنى هذا القصر، الآن لم يبق من السبعمائة فدان سوى مائة وخمسين فداناً بخلاف حديقة القصر التى تبلغ مساحتها حوالى عشرة فدادين، وطبعاً القصر بحدائقه والأرض الزراعية التى تتبعه تعتبر الآن من أملاك الدولة كما تعرفون.

بالطبع يعلم الدكتور ممدوح فيما تستخدم مساحة الأرض الزراعية! أو معظمها على الأقل وهو السبب الذى يدعو بجانب بعض الأمور الأخرى، إلى استخدام هذه الحراسة الرسمية المشددة، لكنه سأل المهندس كمال سؤالاً اعتراضياً عن الجانب الآخر الذى يلفه الغموض، ولا يعلمون عنه إلا ما تنقله الإشاعات.

– وماذا تفعلون بالقصر؟

القصر كما ترى تحفة معمارية وهو يختلف عن بقية القصور المقامة فى الريف من حيث الفخامة والطراز والحجم، به عشرين غرفة وثلاثة أجنحة كل جناح متصل ببرج من الأبراج الثلاثة، هذه الأبراج عندما يدخلها الإنسان من أحد الأجنحة الموجودة فى الطابق الثانى، يجدها باردة منعشة الهواء فى أشد أيام الصيف حرارة.

الأميرة كما يقولون كانت تقضى فى هذه العزبة معظم أيامها، وأصبحت بعد بناء القصر تقيم هنا بصفة مستمرة، مع زوجها الثانى وحاشيتها الكبيرة وموظفيها ووصيفاتها وخدمها من سفراجية وطباخين وسائقين، كانت تعتبر هذا المكان وسط الخضرة والهدوء مملكتها الخاصة التى تقع فى هذه المنطقة التى كانوا يسمونها فيما سبق ريف العاصمة، حيث توجد على مقربة من المدينة وفى نفس الوقت بعيداً عن صخبها وضجيجها.

كانت إنسانة رقيقة مترفة على قدر كبير من الجمال بشعرها الأسود الطويل وعينيها الزرقاوين وجسدها الرياضى الرشيق الممشوق القوام، تحب الفن وتميل إلى العزلة وتهوى الريف، وكانت أيضاً مولعة بالخيل كوالدها الذى كان من كبار المربين وامتلك سلالة متميزة من الخيل العربى، واصطبلاً كبيراً كانت له شهرة عالمية ورثته ابنته فيما ورثت عنه، لذلك قامت بتوفير كل وسائل الترف وسبل الحياة الملائمة لها، حتى تكون على مقربة من خيولها.

القصر من الداخل كان يحوى تحفاً لا حصر لها، لوحات لفنانين عالميين وفازات كرستالية وأخرى من أنقى أنواع الخزف الصينى، وسجاد من أغلى الأنواع فى العالم وكذلك كميات هائلة من الذهب والفضة، وأطقم السفرة والنجف وكذلك مقابض الأبواب وصنابير المياه فى غرف وحمامات الطابق الثانى..

كانوا قد وصلوا إلى حديقة مسورة تقع بالقرب من المنطقة الخلفية للقصر، مر بهم المهندس كمال من بوابة صغيرة فى السور لها باب من الحديد المزخرف، توقف الزوار الثلاثة مشدوهين أمام حمام السباحة البيضاوى المصنوع من الفسيفساء الملونة، والمحاط بمظلات على هيئة أكشاك بالغة الرهافة من الرخام ناصع البياض، وهو نفس الرخام الذى صُنعت منه بلاطات الأرضية وممرات الحديقة التى يقع حمام السباحة فى

قلبها، والتى تتوزع حولها نافورات مصنوعة بنفس نوع الرخام أيضاً، بينما يظهر خلف الحديقة ملعب تنس محاط بسور عالٍ من الشبك السلكى.

– ياااه... هذا نموذج للثراء الفاحش الذى كنت أسمع عنه طوال عمرى، ولم أره أبداً من قبل!

قال الرجل الأربعينى وهو ينظر إلى المياه الفيروزية الصافية المتلألئة تحت أشعة الشمس وهى تعكس ألوان الفسيفساء المتعددة، هذا المكان مازال يُستخدم؟! هذه العناية والنظافة التى تشع من الرخام والزرع المشذب حوله وهذه الزهور المزروعة حديثاً...

بالقرب من السور فى ركن الحديقة البعيد شاهدوا قفصاً كبيراً من السلك، أنيق الشكل عليه زخارف ملونة بالأبيض والأزرق والأحمر، به عدد من الطواويس.

نظر الشاب الثلاثينى إلى المهندس كمال وقال ضاحكاً فى شىء من السخرية وهو يشير نحو القفص.

– الطاووس رمز الغرور!

رد المهندس كمال مبتسماً.

– وقد يكون رمزاً للجمال والأناقة والكبرياء أيضاً.

فكر الشاب للحظة ثم قال.

– نعم قد يكون هكذا ولم لا، لكن هل تظل محبوسة فى القفص طوال الوقت؟

– لا.. يطلقونها لتتجول فى الحديقة أحياناً.

– كأننا فى بلد آخر غير بلدنا!!

علق الشاب الثلاثينى بشكل لم يعرف معه الآخرون إن كان مندهشاً أم مستاءً.

***

عندما تم إخطار الدكتور ممدوح بهذه المأمورية، استعاد معلوماته عن هذا المكان الذى تروى عنه بعض الحكايات، سمعها منذ بدء عمله فى مركز أبحاث الوزارة، معظم هذه الحكايات مجرد إشاعات لا ترقى لمرتبة الحقيقة، لكن الشىء المؤكد الذى تيقن منه مع تقدمه فى العمر وترقيه فى المناصب، أن القصر وحدائقه ومزارعه يتبع وزارتهم من الناحية الشكلية أو الرسمية فقط، لكن فى الحقيقة هناك جهات أخرى فى الدولة لها الكلمة العليا فى إدارة هذا المكان!

عقب كمال على كلام الدكتور الشاب.

– بلدنا من البلاد الغنية على مدى تاريخها.

– لم أقصد الغنى، بل قصدت مستوى النظافة والذوق والجمال، وهى فى رأيى لا ترتبط بالغنى بقدر ما ترتبط بالسلوك والنظام!

– على كل حال، هكذا كانت حياة الأمراء والأميرات.

أراد الشاب أن يقول، ومن الذى يتمتع بهذا الثراء والترف الآن؟ لكنه آثر السكوت.

سأل الدكتور مجدداً، لا لأنه يريد أن يعرف ولكن ليرى كيف ستكون إجابة مهندس حدائق القصر.

– ماذا تفعلون بالقصر؟

– بعد انتهاء الحكم الملكى ظل القصر منسياً لسنوات، لم ينتبه له أحد، أو ربما لم يعرفوا بمدى فخامة مبناه وطرازه المعمارى الفريد وحدائقه ذات الأشجار النادرة التى اشترتها الأميرة من خارج البلاد، أغلب الظن أنهم اعتقدوا أنه مجرد قصر ريفى بسيط مثل غيره من قصور الريف الكثيرة التى كان الأمراء والأثرياء عموماً يمتلكونها، لم يلتفتوا إلى قيمة القصر وملحقاته إلا بعد مرور فترة طويلة!

يُقال أن واحداً منهم حلق فوق القصر بطائرة، أو تصادف أن مر بطائرة صغيرة ذات محركات مروحية وهو فى مهمة ما فرأى القصر من نافذة الطائرة، ولما نزل أمر بإحضار الملف الخاص به وبتاريخه إلى مكتبه، ثم كلف طاقماً من رجاله بجرد محتوياته من تحف ولوحات أو ما كان تبقى منها وتسجيلها ضمن أملاك الدولة.

قال الدكتور مغيراً صيغة السؤال، ليرى مدى المسموح به لدى أحد موظفى الوزارة المنتدبين إلى مثل هذا المكان، يعلم إنهم

يُختارون وفق معايير محسوبة يدخل فيها عنصر الأمن بالإضافة إلى الوساطة والصلات، فالمنتدبين إلى هذه الوظائف لهم بدلات خاصة تضاعف مرتباتهم عدة مرات عن زملائهم من موظفى الحكومة.

– هل يُقيم أحد فى القصر الآن؟

– الحقيقة إن وضع القصر ومكانه مثل مشكلة منذ البداية، كان هناك صعوبة فى تحويله إلى مدرسة مثلاً أو حتى متحف أو استغلاله فى أى غرض آخر، بسبب موقعه البعيد عن المدينة والتجمعات السكانية عموماً ووجوده المنعزل تماماً وسط الزراعات..

توقف المهندس كمال للحظات، ثم أكمل كلامه بنبرة أكثر خفوتاً.

– لكنهم ظلوا لسنوات يستعملونه.. كمنفى؟!

– منفى!

صاح الدكتور ممدوح مأخوذاً وهو يلتفت إلى كمال.

– منفى.. كيف هذا؟!

– كان هذا يحدث فى العهود الماضية، منذ سنوات بعيدة، بعض الشخصيات المهمة قضت فى هذا المكان فترات زمنية مختلفة بعضها طال لسنوات وبعضها الأخر لم يستغرق سوى شهور.

– أعتقد أن الإنسان سيسعد بالنفى فى مكان كهذا.

قال الدكتور ضاحكاً.

– السجن سجن يا دكتور حتى لو كان فى قصر، كما أنهم كانوا يقطعون الكهرباء والمياه تماماً عن مبنى القصر وكذلك التليفون...

– آه.. بهذا الشكل.. معك حق.

أدرك الدكتور أنه لن يحصل على إجابة، فلم يعاود السؤال ومضى يمشى بجانب كمال صامتاً وهو يتأمل الحديقة، بعد خروجهم من منطقة حمام السباحة، وقد ضايقه هذا الامتعاض الذى ظهر على وجه كمال، وطريقته فى الكلام وهو يجز على أسنانه كأنه لا يرحب بوجودهم!!

***

وهم يقتربون من منتصف الحديقة، ملأت الجو فجأة الرائحة النفاذة المميزة لاصطبلات الخيل، تلك الرائحة التى يجدها عشاق الخيل وهواة تربيتها منعشة محببة إلى نفوسهم وتملؤها تفاؤلاً وسروراً، فمجرد وجودهم بالقرب من أحصنتهم وأفراسهم يسعدهم ويجعلهم يشعرون بالانطلاق والتحرر من معظم قيود الحياة، قوة الخيل ورشاقتها وجمال منظرها ووفاؤها لأصحابها، وسرعتها فى الجرى عندما تسابق بهم الريح وهم على ظهورها فى الأماكن المفتوحة، تصل بالإنسان إلى حالة من النشوة والفرح بالطبيعة قل أن تعادلها متعة أخرى.

تأفف أعضاء اللجنة بشكل واضح من الرائحة قبل أن يجدوا أنفسهم على مقربة من اصطبل للخيل، كان هناك حصانان يطلان برأسيهما من أعلى الباب النصفى لحظيرتهما، رأسان صغيرا الحجم لهما الشكل الهرمى عريض الجبهة والصغير الفم المميز للخيول العربية الأصيلة، بعيون واسعة كحيلة وآذان دقيقة منتصبة وفتحات أنف كبيرة، صهل أحدهما وهو يرفع رأسه كأنما يرحب بالضيوف الذين ظهروا فجأة أمام ناظريه، أو ليعلن ضيقه بهم وتوجسه منهم، هؤلاء الغرباء المقتحمون؟!

أمام الاصطبل ساحة واسعة من الرمل محاطة بسور من العروق الخشبية المدهونة بالأبيض والأزرق، يبدو أنها مخصصة للتريض.

على جانب الساحة وفوق مربع من الأرض مبلط ببلاطات خراسانية كبيرة، على أحد جوانبه حوض مياه كبير، كان أحد السياس يقف وفى يده خرطوم تندفع منه المياه، وهو يعمل بهمة فى غسل فرس شابة بنية اللون رشيقة الجسم والقوائم لها عينان واسعتان كحيلتان، تبدو بديعة التكوين كأنها تحفة حية، تضرب الأرض بحوافرها المصقولة ولا تكاد تستقر عليها وهى تتراقص بخفة رافعة رأسها وهى تنفض الماء عن رقبتها وكفلها فتتناثر قطراته حولها متطايرة فى الهواء عاكسة لألوان أشعة الشمس القزحية، فيتموج شعر معرفتها الأسود الطويل ويرجع لينسدل

على رقبتها العريضة، كأنها أشد ما تكون استمتاعاً بحمامها الصباحى، والسائس يكلمها ويلاطفها ويربت عليها، ولم يلبث أن وضع الخرطوم على الأرض تحت قوائمها وتناول فرشاة مبللة بالصابون من جردل بجانب الحوض وأخذ يدعك جلدها.

– خيل أيضاً.. هل مازلتم تحتفظون بالخيل هنا.

علق الدكتور مندهشاً وهو يتأمل الفرس الجميلة.

– هم.. وليس نحن؟! وهى بضعة خيول.. أربعة أو خمسة، لا أكثر.

– لكنها خيل أصيلة.

ثم أضاف ضاحكاً وقد أنعشه ثراء المكان وطبيعته الخلابة.

– وهل تدخل ضمن ملكية الوزارة؟ أم أنها...

رد كمال بجدية وهو يبتسم ابتسامة خفيفة.

– على كل حال هى ملك للدولة، لكنها لا تتبع وزارتنا.

خيل كمان يا ولاد الكلب، قال الشاب الثلاثينى فى سره وهو ينظر متفحصاً صف الاصطبلات ويرى السياس وهم يعملون والفرس مبهرة الرشاقة، ويسمع وقع حوافرها المُنغم على أرضية حمامها الأسمنتية.

بالطبع هذا الاصطبل الصغير لا علاقة له باصطبل الأميرة، الذى كان يسع عشرات الخيول ويشغل مساحة كبيرة من العزبة، أضاف كمال موضحاً.

قال الدكتور ممدوح مخاطباً زميليه، وهو يشير إلى ثراء المكان وأناقته.

– كان يجب أن يحضر معنا الدكتور عادل أبو خطوة هذه المأمورية.

– نعم.. من المؤكد أنه كان سيعجب بالمكان هنا، فهو يحب الأناقة والمناظر الجميلة التى تذكره بأمريكا وأوروبا، وكذلك الأماكن الأثرية كهذا القصر.

بعد أن تجاوزوا منطقة الاصطبل وساروا لعدة دقائق فى الحديقة المفتوحة، مروا على مجموعة من الأبنية ذات طابقين تشبه المبانى الإدارية، أبنية قديمة الطراز ربما تعود لزمن بناء القصر، يبدو أنها كانت من ملحقات القصر العديدة المستخدمة فى أغراض شتى، لكن من الواضح أن هذه المبانى بطلائها الحديث تلقى كل العناية والصيانة اللازمة، أمام المبنى تقف عدة عربات جيب عسكرية، وعدد من العساكر يقفون حول ضابط شاب، بدا أنه يلقى عليهم بتعليمات أو أوامر، رفع المهندس كمال يده محيياً الضابط، فسلم الضابط عليه باحترام.

– أهلاً يا كمال بيه.. تفضلوا.

– شكراً.

بعد سير عدة دقائق أخرى وصلوا إلى نهاية الحديقة، سار بهم كمال بمحاذاة السور لمسافة قصيرة حتى بلغوا بوابة تفضى إلى الحقول.

2

وقف رزق برأسه الضخم وشاربه الكثيف وشعره الخشن وجسده الربعة المتين البنيان المترهل بعض الشيء، مستنداً بمؤخرته على رفرف السيارة الحكومية التى يقودها، تلفت حوله بحذر ثم أشعل سيجارة وهو يشرب كوب الشاى، ظل بجانب سيارته متهيباً التحرك ومغادرة مكانه، كان منذ توقفه أمام البوابة ورؤيته للعساكر وهم يحملون السلاح ويدققون فى فحص بطاقات الهوية وهو فى حالة رعب، كان يخشى أن يقبضوا عليه لأى سبب – وهم لا تعوزهم الأسباب – ويجد نفسه فى سين وجيم وتحقيقات وحبس ونيابة.

بعد نزول الدكاترة الثلاثة من السيارة وتركهم له وحيداً فى هذا المكان الموحش الهادئ تماماً، وجو بداية الشتاء يضفى عليه شيئاً من الكآبة، أصابه الذعر خاصة مع وجود السيارات التى تحمل لوحات عسكرية، وكاد يستغيث بالدكتور رئيس اللجنة ويرجوه ألا يتركه بمفرده، ظل يفكر فى الصفعات والشلاليت والأقفية التى ستنهال عليه ومدى ما يمكن أن يتعرض له من البهدلة والتهزىء عندما يأتون ويجدونه واقفاً على مقربة من سياراتهم،

أخذ يعدل هندامه ويشد قميصه ويسحب بنطلونه لأعلى كرشه وهو يشفط بطنه، ومرر يده على ذقنه النابتة وندم على أنه لم يحلقها فى الصباح.

نظر إلى الممرات التى تحيط بموقف السيارات والمبلطة بالحجارة الملونة والمؤطرة بطوب وردى اللون، والأشجار الداكنة الخضرة التى تحجب الرؤية وتعزل مكان وقوف السيارات، أحس بالوحشة وانقبض قلبه، كرجل عاش طوال عمره بين الضجيج والزحام أشعره الهدوء التام المخيم على المكان بالفزع.

وقوفه وحيداً يسمع حفيف الهواء وهو يتخلل الشجر ويصدر صفيره الرتيب أرهبه، هذا الصوت الذى لم يسمعه من قبل، نادرة جداً الأشجار فى مدينته وحتى الموجود منها والتى يصادفها أحياناً تقف وحيدة على رصيف من الأرصفة، عادة ما تكون عجوزاً عجفاء يابسة تعلو أوراقها الباهتة طبقة من الغبار الأسود، أما هذه الأشجار الوارفة الوفيرة الخضرة التى تقف بشموخ تسد الأفق أمامه فمثلت له ظاهرة جديدة من ظواهر الحياة لا عهد له بها!

منذ زمن بعيد وهو يسمع عن قصر الأميرة، ولم يتصور فى يوم أنه سيقف فى حديقته الداخلية، بل أمامه مباشرة وعلى بعد خطوات منه ويراه رأى العين.

***

نشأ رزق فى الحى الشعبى الذى يقع على أطراف المدينة، أرض هذا الحى كانت فيما مضى أرضاً زراعية وتعتبر جزءاً من ريف العاصمة، لكن حركة العمران والبناء امتدت إليها وقضت على الحقول قطعة قطعة بعد انقضاء الحكم الملكى وعبر السنوات التالية له، لتحول الأرضى الزراعية ببساتينها وأشجارها وترعها وقنواتها المائية ومصارفها وبيوت فلاحيها الطينية، إلى شوارع وأزقة وحوارى تطل عليها بيوت واطئة متلاصقة، مكدسة بالفقراء الذين نزح معظمهم من القرى والكفور، هاجروا من الريف البعيد بحثاً عن الرزق الذى ضاق عليهم فى ربوع المدينة، ترك معظمهم العمل فى فلاحة الأرض وفضلوا عليها الأعمال الدنيا التى لم يكن أمامهم غيرها، فقط ليصبحوا من سكان العاصمة ومواطنيها!

كان يسود بينهم وهم يعيشون فى قراهم ويمارسون العمل الشاق فى زراعة الأرض أن سكان المدينة، الذين لا يستطيع الرجل منهم حمل فأس بيديه جميعهم سعداء يعيشون فى النعيم، يسكنون العمارات العالية ويمشون فى الشوارع الإسفلت النظيفة ذات الأرصفة العريضة المزروعة بالأشجار، والتى تنتهى بميادين دائرية واسعة تتوسطها الحدائق، ويشترون حوائجهم من المحلات ذات الواجهات الزجاجية، التى توجد بها بضائع من جميع

الأصناف ويجد فيها الإنسان كل ما يريده، أما أهم ما فى الأمر فهو الفلوس.. الفلوس فى المدينة كثيرة، الحكومة هناك تصرف من وسع وسكان المدينة طوال الوقت جيوبهم ممتلئة، عندهم فلوس أكثر مما يحتاجون، العمل فى الوظائف الحكومية وغير الحكومية لا يحتاج إلى جهد ولا يقف الرجل منهم تحت الشمس فى عز الحر ولا يقوم من نومه فى الفجر ليسقى الأرض بالفأس!

يقع قصر الأميرة فى قلب الحقول التى يُطل الحى على مشارفها، سمع رزق وهو طفل الكثير من الحكايات المرعبة عن هذا القصر والعساكر الذين يحرسونه ويمنعون الناس من الاقتراب منه، كان هناك الكثير من القصور القديمة التى توجد فى الزراعات، معظمها تهدمت أسواره وأصبح بلا حماية، مرات عديدة تسلل فيها هو ورفاقه من الصبية عبر الغيطان ليلعبوا فى حدائق هذه القصور، يغافلون الغفير الذى عادة ما يكون رجلاً عجوزاً ليسرقوا من الأشجار المتناثرة فيها، ثمار الجوافة والمانجو والبرتقال ويتسلقون النخل إلى البلح.

أما الدخول إلى مبنى القصر المهجور فكان يمثل مغامرة أخرى، الباب الخشبى الكبير المتكسر عادة والمدعم بعدة ألواح من الخشب لم يكن عائقاً بالنسبة لهم، ينفذون بأجسادهم النحيفة من بين الفرجات وهم يدفعون الباب بحذر وينظرون إلى بقع الشمع الأحمر الملتصقة عليه باستغراب.

يندفعون إلى الصالة التى تدهشهم بمدى اتساعها وبسقفها الشاهق الارتفاع ونوافذها الملونة الزجاج، والغرف الكبيرة التى تزيد مساحة الغرفة الواحدة منهم على مساحة شقة، ويظلون يلعبون وهم يتنقلون فى أرجاء القصر الخالى من الأثاث ويجرون على طبقة التراب التى تغطى أرضيته، ويرسمون عليها بأقدامهم وأيديهم حتى يتصاعد التراب منتشراً حولهم مكوناً سحابة من الغبار فى الهواء الراكد تجعلهم يسعلون، فيتركون الطابق الأرضى ليصعدوا السلم إلى السطح غير مبالين بالغفير الذى سرعان ما يلمحهم ويأتى، يقف أسفل القصر مهدداً ملوحاً بعصاه، يسبهم ويسب أباءهم وجدودهم وهم على السطح يسخرون منه ويسبونه بدورهم ويتحدونه أن يصعد إليهم، يبقون متحصنين فى مكانهم يتفرجون من أعلى القصر على الأشجار والحقول، يلعبون حتى يحل عليهم التعب ويصيبهم الزهق، فيتسللوا خارجين ثم يسارعون بالفرار من الغفير العجوز الذى يكون قد كمن لهم بالعصا فى مكان قريب مترقباً متحفزاً للانتقام، ينقض عليهم لحظة خروجهم وغاية أمله أن ينجح فى القبض على صبى منهم، لكن هذا الأمل لم يتحقق أبداً لأى غفير من غفراء تلك القصور، فى نهاية الأمر يقنع ببعض ضربات العصا الموجعة التى يطول بها ظهر أو رجل أو كتف أى صبى منهم وهم يفرون منه كالعفاريت.

***

صالح بسيونى كان مختلفاً عن بقية الخفراء، الوحيد من بينهم الذى كان شاباً، ربما فى حدود الثلاثين أو أقل، طويل القامة نحيف الجسد، يحرس فيلا تقع وسط الحقول القريبة من الحى، وتلفت نظر الصبية وتثير فضولهم بطرازها المعمارى الغريب، لكنهم كانوا لا يستطيعون الاقتراب منها أو القفز على سورها الحجرى العالى، ليلعبوا فى حديقتها الجرداء التى تنمو بها أشجار غريبة المنظر تكتسى فى الصيف بزهور حمراء وصفراء، أو ليصلوا إلى أشجار النخيل المترعة بأجود أنواع البلح الأحمر والأصفر، والتى تحيط بالفيلا وتدور حولها فى صف منتظم من الأربع جهات، بسبب الغفير الشاب الذى لا يتساهل مع أى صبى يتسلل إلى الحديقة، ليس فقط لأنه يخلص فى أداء عمله ولكن لوجود امرأته الشابة داخل السور!

يسكن صالح غرفة صغيرة فى حديقة الفيلا بجوار البوابة، مع زوجته وأطفاله الصغار، الذين كانوا يتزايدون بمعدل طفل كل عام، يلعبون ويجرون حوله وهو جالس على كرسيه أمام البوابة على الرصيف، لا يفعل شيئاً سوى التطلع إلى المارة، كان حديث عهد بالمدينة، أتى من عمق الريف بعاداته وتقاليده وطباعه ولهجته متخلياً عن مهنته كعامل زراعى، ليحرس هذه الفيلا فى هذا الحى النائى الواقع على أطراف العاصمة.

وفيق بسيونى مالك الفيلا ينتمى إلى نفس القرية التى جاء منهـا صالح، يمت له بصلة قرابة بعيدة، الفرع الغنى من العائلة التـى يقبع هو فى قاعها، لا يعرف عنه الكثير سوى أنه غادر القريـة فى سن مبكرة ليلتحق بالمدرسة الثانوية، ثم سافر إلى العاصـمة ليتعلم الرسم فى الجامعة، وهو ما يراه صالح فى قـرارة نفسـه أمراً مضحكاً، هل يحتاج تعلم الرسم إلى دخول الجامعة! بعد ذلك سافر إلى أوروبا وعاش هناك سنوات، عاد بعدها إلـى وطنـه واختار أن يعيش فى قرية صغيرة على مقربة من العاصمة.

بطبيعة نشأته الريفية كان محباً للحقول والزرع ورائحة الأرض وأصوات الطيور التى تملأ الفضاء عند شروق الشـمس وهـى تستقبل اليوم الجديد، ولحظة الغروب عندما تأوى إلى أعشاشـها مودعة النهار، وبطبيعته الفنية كـان محبـاً للجمـال وتجليـات الطبيعة.

لذلك بعد قضاء عدة سنوات فى العاصمة، اشترى قطعـة أرض صغيرة حوالى نصف فدان تقع فى قلب الحقول وتصل للطريـق الزراعى المؤدى للعاصمة بشارع ضيق لا يزيد على الكيلومتر، وبنى عليها فيلا من طابق واحد تحيط بها حديقة واسعة زرعهـا بأشجار ونباتات الزينة والزهور، على نسق حدائق البيوت التـى عرفها فى أوروبا، وأحاط الفيلا بصف من النخيل حتى يضـيف إليها الطابع الشرقى.

طلب من المهندس الذى وضع تصميم الفيلا أن يجعلها على الطراز التاريخى القديم، كان هذا طلباً غريباً ومفاجئاً للمهندس الذى تعلم فى أوروبا فى الوقت الذى كان فيه وفيق يدرس هناك أيضاً، لم تكن علاقتهما علاقة صداقة بل زمالة وتعارف من خلال التجمعات الطلابية التى كانت تجمعهما مع غيرهم من طلاب البعثات، لكن المهندس أحمد بشكل أو بآخر استحسن الفكرة واعتبرها تحدياً له، وأقبل على العمل فى التصميم بجدية، وتمكن بعد جلسات طويلة مع وفيق تناقشا خلالها فى كثير من التفاصيل، وفحص عشرات الصور لمبانى الحضارة القديمة المرسومة على جدران المعابد والمقابر وأوراق البردى، أن يصنع تصميماً جمالياً فريداً من نوعه ليس فقط للبناء نفسه ولكن أيضاً للسور الذى يحيط بحديقته.

– ما الذى جعل هذه الفكرة تطرأ على بالك؟ هل يمكن أن نعتبرها شطحة من شطحات الفنانين؟!

سأل أحمد مبتسماً وهو ينظر إلى صورة مخطوطة بردى عليها رسم لمبنى.

– لا.. ليست شطحة، فالشطحات عبارة عن فكرة عابرة قد يتأثر بها الفنان لبعض الوقت وربما يستغلها فى عمل إبداعى أو فنى، وتأثيرها قد يطول أو يقصر لكنه لا يدوم، وسرعان ما ينتقل الفنان إلى غيرها، أما فكرة البيت فهى بالنسبة لى حلم أو أمنية،

نشأت عندما كنا فى أوروبا، وقتها رأيت أن الأوروبيين أكثر اهتماماً منا بهذا التاريخ، بل ويعرفونه أكثر منا بكثير، بينما معلوماتنا نحن عن هذا التاريخ وهذه الحضارة الإنسانية الكبرى، مجرد معلومات سطحية لا تتجاوز القشور الخارجية.

أحزننى هذا.. وأزعجتنى تلك المقارنة بيننا وبينهم، مما دفعنى إلى قراءة كل الكتب المتاحة عن هذا التاريخ، لأكتشف هذه الحضارة الرائعة وأعرف مدى ما وصلت إليه من تقدم فى معظم المجالات ومنها الفن.. فلا حضارة بلا فن، كل حضارة تُنتج فنونها الخاصة بها وفق بيئتها وموقعها الجغرافى وطبيعة أرضها ومناخها، أذهلنى أن أعرف أن العلم الحديث بكل ما وصل إليه من تقدم مازال عاجزا عن معرفة بعض ما صنعته تلك الحضارة، خاصة فيما يتعلق بعلم الهندسة والبناء، هناك الكثير من الأسرار التى لم تُكتشف عن التقنيات التى استخدموها فى بناء المعابد الضخمة والتماثيل هائلة الحجم...

– نعم أنا أعرف هذا من خلال دراستى فى الهندسة المعمارية.

قال أحمد معقباً ثم أضاف.

– وقرأت أيضاً فى بعض المجلات عن براعتهم فى الطب ونبوغهم فى التشريح.

– نعم بالطبع، وكانوا أيضاً يقومون بإجراء عمليات جراحية باستخدام أدوات فى غاية الدقة.

علق وفيق على النقطة الفرعية التى ذكرها أحمد ثم استأنف حديثه.

– انشغلت بحضارة هؤلاء القدماء لفترة طويلة، وانعكس ذلك على لوحاتى وأعمالى فى تلك الفترة، الفترة التاريخية فى مسيرتى الفنية كما يقول النقاد، ظلت فكرة بناء البيت تُلح على عقلى منذ ذلك الوقت، وعلى عكس التفكير الشائع لم أتصوره فى الصحراء أبداً، فالقدماء لم يكونوا يعيشون فى الصحراء، كانوا يبنون مقابرهم هناك بما يعنى أن الصحراء كانت مكان الموت لا الحياة، لذلك اخترت هذا المكان بين الحقول فى قلب الحياة والزرع لأبنى عليه بيتاً يجسد حلماً طالما داعب خيالى.

***

احتاج البناء إلى استخدام أحجار بيضاء اللون من نوع خاص، كان لابد من تقطيعها وتجليخها وجليها وفق مواصفات محددة لتصبح ناصعة البياض، حسب رغبة وفيق الذى أراد أن يكون لبيته لون أبيض طبيعى وليس مجرد طلاء، مما استلزم الكثير من الجهد والوقت وزاد فى التكلفة، لكن فى النهاية وبعد اكتمال البناء جاءت النتيجة مرضية تماماً له، وجسد البيت على أرض الواقع حلماً طالما راوده فى الخيال، كان يراه كما يرى اللوحة قبل أن تُرسم، وشرع فى تنفيذه كما لو أنه يرسم لوحة من لوحاته، لوحة واقعية مجسمة ومكتملة الأبعاد.

تحوى الفيلا مرسماً واسعاً وثلاث غرف وصالة، وصُمم سطح الدور الثانى كشرفة نصف مساحتها مغطاة بسقف حجرى يرتفع على أعمدة تشبه أعمدة المعابد القديمة، بينما تُرك نصفها الآخر مفتوحاً يُطل على السماء، ووضعت أصص الزهور والنباتات الفخارية الكبيرة الحجم فى الأركان، تُطل منها شجيرات الياسمين والفل والورد واليوكا والدارسينا مما جعل الشرفة تبدو كحديقة صغيرة متوهجة الخضرة ومعبقة على الدوام بشذا الزهور.

كان وفيق بسيونى الرسام الشهير محباً للطبيعة عاشقاً للجمال، لكنه لم يكن محباً للعزلة، اختار أن يعيش فى هذا المكان بين الخضرة والحقول، لكنه لم ينقطع عن المدينة التى يقيم على مقربة منها، يذهب بسيارته إلى عمله فى الصباح بمعهد الفنون، حيث يُدرس ويلقى محاضراته على طلبة الفن، ويذهب مرة أو مرتين فى الأسبوع إلى المجلة التى يرسم لها الأغلفة ويشارك فى تحرير صفحتها الفنية.

فى المرات الأولى التى رآه فيها الفلاحون وهو يخرج من بيته ليتمشى فى الحقول، بملابسه وعادته التى اكتسبت طابعاً أوروبياً ملحوظاً خلال فترة حياته هناك بين زملائه الفنانين، وببشرته البيضاء وعينيه الملونتين وقبعته الأوروبية وشعره الطويل المهوش الذى يتطاير من تحتها، والغليون المشتعل فى فمه دائماً والذى يملأ الجو حوله برائحة الدخان النفاذة، اعتقدوا أنه رجل

خواجة جاء لسبب غامض غير مفهوم ليعيش على مقربة منهم، ما أثار دهشتهم وريبتهم أنه على غير عادة بنى جنسه لم يشتر أرضاً ولا محلاً وليس له تجارة، اكتفى فقط بهذه المساحة التى لا تتجاوز النصف فدان، ليبنى عليها بيته عجيب الشكل الذى لم يروا مثيلاً له من قبل!

بعضهم يقول إنه سمعه، أثناء ما كان العمال يعملون فى بناء البيت، يتكلم معهم باللغة العربية مثلما نتكلم، لكن البعض الآخر أقسم أنه سمعه يرطن بلغة الخواجات وأنه بلا أى شك خواجة ابن خواجة.

– ربما يكون خواجة عايش هنا من زمان، تعلم لغتنا ويتحدث بها.

– يجوز.. لكن هؤلاء يتكلمون عربى مكسر، أنا سمعته يتكلم مع العمال كأنه فلاح مثلنا.

– فلاح.. لابد أنك كنت شارب سيجارة حشيش وقتها!

– هو فيه فلاح يلبس برنيطة على رأسه؟!

– لكن لماذا ترك العمار فى الحى القريب من هنا، وسط الفِيلل والقصور والعمارات والشوارع الإسفلت، وجاء ليبنى فيلته هنا فى الخلاء بين الغيطان؟!

– صحيح والله.. لا عنده عزبة ولا طين ولا اشترى أرض!!

كانوا يجلسون تحت شجرة جميز عملاقة ينتظرون براد الشاى الموضوع فوق كومة من الحطب أن يغلى، لمحوه من بعيد وهو يسير على مهل متأملاً ومستكشفاً جماليات هذا العالم الثرى المترع بالخضرة والخصوبة، ينفذ ببصيرته إلى عمق المناظر التى يمر بها ويفككها إلى مقاطع ولقطات، كل لقطة منها تصلح أن تصنع لوحة، يستغرق فى تحليل الضوء ومساقطه وكيفية وجوده فى اللوحة؟ هذا الضوء الكاشف.. المنير الذى يملأ الفضاء ويجعل وجه السماء يتألق إشراقاً، هذا الزرع الداكن الخضرة الذى ينبئ عن قوة الأرض وعافيتها، أسراب الحمام التى تنطلق فى الفضاء ثم ترجع لتسكن فى أبراجها ذات التصميم الفريد من نوعه، لا توجد مساكن للحمام بهذه الكيفية فى أى مكان آخر، يفكر فى عشرات اللوحات التى سوف يرسمها، هذه الطبيعة لابد أن تسجل فنياً، مشروع ضخم لابد أن يعمل فيه بكل طاقته، سيقدم رؤيته الخاصة، لا يريد أن يرسم الطبيعة الصامتة، فهذا فن تخطاه الزمن.. سيبتكر أسلوباً جديداً خاصاً به، حتى الألوان سيضيف عليها من فكره ومن روحه أيضاً، لتخرج اللوحة معبرة ليس عن المكان وطبيعته فقط، بل عن الإنسان والحياة نفسها..

وهو سارح فى أفكاره هائم مع خياله، وجد وفيق نفسه بجوار حلقة الرجال الجالسين على حصيرة متآكلة الحواف، توقف وألقى

عليهم السلام مبتسماً، متصوراً جلستهم تلك وبجانبهم رصة الحطب المشتعل يتصاعد منها الدخان، وعليها براد الشاى وقد أخذ فى الغليان والبخار يندفع من فوهته الرفيعة، متجسدة فى لوحة.. لوحة من القطع الكبير حتى تتسع للشجرة الهائلة التى تظللهم...

هب الرجال وقوفاً وهم يردون عليه السلام باحترام ممتزج بالاستغراب، لم يعد هناك شك فى هوية جارهم الجديد.

– اتفضل اشرب الشاى معانا، يا سعادة البيه.

لدهشتهم قبل وفيق الدعوة، تقدم ببساطة وهو يحييهم ويصافحهم قائلاً، إنه بالفعل يشعر بالحاجة إلى كوب من الشاى بعد هذا المشوار.

أفسحوا له مكاناً فجلس بينهم، بينما قام أحدهم وانتقى كوباً وأعاد غسله من ماء القلة، ثم صب فيه الشاى للضيف الذى باغتهم بقبول الضيافة.

أشعل وفيق غليونه وأخذ فى رشف الشاى بتلذذ واضح، لم يكن هناك صعوبة فى مد جسور التعارف بينه وبين مضيفيه، كان يعرف بحكم نشأته الريفية، أنهم لن يرتاحوا ويهدأ لهم بال حتى يعرفوا أصله وفصله وسبب سكنه قرب قريتهم، وانتهز هذه الفرصة التى لاحت له مصادفة ليقدم نفسه لمجموعة منهم، وهو

على يقين بأن جميع أهل القرية سوف يبيتون ليلتهم وهم يعرفون تفاصيل الحوار الذى دار بينه وبين هؤلاء الرجال!

لكن هذا لم يعن أنه جلس معهم ليشرب الشاى مضطراً، بل إنه وجد متعة فى الجلوس وسط الحقول وقت العصارى واحتساء كوب من الشاى تحت ظل الشجرة الوارفة الأغصان، وتبادل الحديث مع هؤلاء الرجال الطيبين الذين رحبوا بوجوده بينهم.

لم تكن تلك الجلسة التى استغرقت بعض الساعة إلا البداية لتعارف استمر سنوات طويلة، اعتاد بعدها وفيق على مجالسة أهالى القرية فى حقولهم بين زرعهم ونخلهم، واعتادوا هم على رؤيته وهو يحمل فرشاته ولوحاته وكرسيه الصغير ويمشى فى زراعاتهم ليختار مكاناً بعينه ليجلس فيه بالساعات مستغرقاً فى الرسم، ولم يكن يزعجه أن يأتى بعضهم ليقف بجواره وينظر لعدة دقائق فى الجزء الذى يعمل فيه من اللوحة ويرون المنظر الممتد أمامهم وهو يتكون تحت الضربات البارعة لفرشاته، ولكن بألوان وأشكال مختلفة عما هى عليه فى الطبيعة، النخيل يملأ اللوحة لكنه غير الذى يشاهدونه على البعد أمامهم، والأشجار ليست التى يعرفونها، هناك شىء ما لا يعرف الواحد منهم كنهه ولا ماهيته يجعل المنظر فى اللوحة مختلفاُ برغم أن جميع تفاصيله موجودة، لكن مع ذلك تتبدى لهم اللوحة زاهية تكاد تنطق وتشع بالجمال، كانوا يتعجبون فى أنفسهم من تلك المقدرة

التى يتمتع بها وللدقة الشديدة التى يرسم بها أصغر الأشياء، حراشف النخل، أوراق الأشجار وأغصانها الرفيعة، الأجراس التى تتدلى من رقاب المواشى وهى تدور فى الساقية.

أما الأطفال فكثيراً ما كانوا يتحلقون على مسافة منه وهم جالسون على الأرض يتابعونه فى شغف دون أن يُحدثوا ضجيجاً، بالنسبة لهم كان وجود رجل كوفيق فى قريتهم يُعد حدثاً نادراً، ويمثل لهم عالماً غريباً وساحراً فى الوقت نفسه، يملأ خيالهم بأحلام المدينة التى تربض على مقربة منهم، والبعيدة فى نفس الوقت عن حياتهم الرتيبة الساكنة الإيقاع.

***

بعد فترة وجيزة من بنائها أصبحت الفيلا ملتقى لأصدقاء وصديقات وفيق وهم كثيرون، فنانون وأدباء وصحفيون، يتوافدون عليها فرادى وجماعات، بعضهم عندما يتأخر به السهر يقضى ما تبقى من الليل نائماً على كنبة فى الصالة أو أى كرسى فوتيه من الكراسى الكثيرة الموزعة بها، والبعض الآخر كان يمكث ليومين أو ثلاثة، أما أصدقاء وفيق الأوروبيين وزملاء دراسته، ممن كان يستضيفهم فى بيته أثناء زياراتهم لبلده، فقد كانوا يقيمون فى الفيلا خلال إقامتهم التى تمتد لأسابيع.

الطريق إلى الفيلا كان بحد ذاته مغرياً للأصدقاء، مشوار محبب إلى النفس، مبهج ومريح للأعصاب، فبمجرد أن تخرج من أحياء

العاصمة وتدخل منطقة الضواحى التى تتماس مع الريف، تجد نفسك فى قلب الخضرة، الشوارع الهادئة تنتظم على أرصفتها صفوف من الأشجار تظلل الشارع، تتناثر على جانبيها القصور والفيلات والعمارات الأنيقة ذات الثلاثة طوابق، جميعها محاطة بالحدائق وتظلل شرفاتها الأشجار، تمر على الميادين الواسعة وتتجاوزها وأنت تتساءل، كيف يمكن للجنة أن تكون إذا كان الله قد وضع كل هذا الجمال على الأرض؟! تمتلئ نفسك بالطمأنينة وتسعد بالحياة وتكاد تحسد نفسك على ما تنعم به من جمال.

تغادر منطقة الضواحى وقبل أن تصل إلى الطريق الزراعى ينفتح الكون أمامك على بحر من الخضرة الزاهية، والسماء الصافية التى تغمر الأرض بالضوء، تسير على الطريق الذى تنتشر على جانبيه أشجار النخيل بأعداد كبيرة، آلاف لا يحصرها عد، تغطى مساحات كبيرة من الأرض، تضفى سحراً خاصاً على هذه المنطقة الخلابة وهى تُطل بقممها العالية فى وداعة على السائرين، وتبث فيهم هذا الإحساس العميق بالسكينة.

بعد وصول مجموعة من الأصدقاء بصحبة وفيق، كانوا قد وصلوا منذ عدة أيام من أوروبا قضوها فى التجوال بالعاصمة وزيارة معالمها التاريخية، والجلوس على شاطئ النهر العريض الذى يمر عبرها، صعدوا إلى الشرفة بعد العصر وكان الشتاء يقترب من نهايته، والجو يميل للبرودة بعض الشىء، تلك البرودة

المنعشة، والشمس من بعيد تأخذ مسارها الأبدى نحو الغروب وهى ترسل أشعتها الدافئة لتغمر الحقول اللانهائية.

تصايحوا دهشة وإعجاباً ووقفوا لعدة ثوان مبهورين أمام البحر الأخضر الذى يتموج أمامهم، يا إلهى.. ما أروع هذا.. هذا المكان.. هذه البقعة ربما كانت أجمل منطقة زراعية فى العالم، صحيح بقدر ما سافرت لم أر حقولاً بهذا الجمال من قبل.. إنك محظوظ يا وفيق تعيش فى قطعة من الفردوس.

كانوا يتكلمون وهم يتحركون فى الشرفة ليشاهدوا المنظر من زواياه المختلفة، تناولوا القهوة التى أتى بها خادم وفيق وهم مازالوا وقوفاً، وأخيراً جلسوا على الكراسى بعد أن أداروها لتواجه سور الشرفة وقد أشعلوا غلاينهم وسجائرهم وقد علاهم صمت عميق وهم يتأملون المنظر الساحر.

قطع أحدهم فترة الصمت قائلاً والغليون يتوهج فى فمه.

– سوف أرسم هذا يا وفيق.. لابد لى من رسم هذا الجمال، الشمس هنا مختلفة، درجات الضوء غير التى نعرفها، ولون الزرع مختلف، من أين يأتى هذا اللون الأخضر العميق؟ وفيق ما هذه الأبنية البيضاء الطولية؟

– إنها أبراج الحمام، يربون فيها طيور الحمام.

– إنها تشكل تكويناً أخاذاً، وتعطى شكلاً جمالياً رائعاً ينسجم تماماً مع المنظر العام للمكان، وفيق.. سوف أجلس هنا وأرسم..

لابد لى من الإقامة بضعة أيام عندك، هـل يضـايقك هـذا يـا صديقى؟

– على الرحب والسعة، يسعدنى هذا بالطبع.

– وأريد أيضاً أن أرسم على الأرض.. هناك بين هذه الحقول.

– لا بأس، سوف ندبر هذا.

– وماذا عن الناس هنا؟ هل يضايقون الواحد منا وهو يعمل؟

– لا، على الإطلاق، سيرحبون بك وستجدهم مهذبين وودودين.

– هذا ما أتوقعه، لا يمكن أن يعيش الإنسان فـى مكـان كهـذا ويكون سيئ الطباع أو عدوانياً أبداً.

– نعم.. هذا صحيح.

obeikandl.com

3

دوناً عن كل القصور القديمة التى توجد فى الزراعات كان قصر الأميرة الوحيد الذى يُحاط بالغموض وتوضع عليه حراسة، ولا يستطيع أحد الاقتراب من سوره، كانوا يسمعون من الرجال المسنين أن البرنسيسة كانت امرأة عجوزاً شمطاء، شرسة الطباع، متسلطة قاسية القلب وبخيلة، تظلم الفلاحين وتعاملهم بالسخرة والكرباج، يقولون إنها مازالت تعيش فى القصر حتى الآن، وأنها تخرج ليلاً لتتجول حول القصر، الكثيرون قالوا أنهم شاهدوها بثوبها الأبيض خاصة فى الليالى المقمرة وهى تمشى فى الحقول المجاورة للقصر.

كان رزق الطفل يمتلئ رعباً وهو يسمع هذه الحكايات، ويقضى الليل خائفاً لا يستطيع النوم وهو يشد الغطاء على وجهه ويغمض عينيه بكل قوته، خشية أن يرى وجه البرنسيسة المتغضن المرعب وهو يطل عليه بغتة من أحد أركان الغرفة التى ينام فيها مع إخوته وأخواته، وكل منهم يزجر الآخر ويخوفه بالبرنسيسة الهائمة على وجهها التى يُقال أنها تخنق الأطفال إذا صادفتهم فى جولاتها الليلية.

الرجال الكبار يتهامسون أحياناً فيما بينهم، لكن هذا الهمس ما يلبث أن يصل إلى أطفالهم وأطفال جيرانهم ويعرفون كل كلمة فيه، بأن البرنسيسة مازالت حتى الآن تحرس كنزها، ثروتها الطائلة المدفونة فى مكان سرى داخل القصر، فعندما انتهى حكم عائلتها الملكية قامت بجمع كل ما بحوزتها من مال وجواهر ومصوغات فى صندوق كبير وخبأته فى مكان مأمون تحت القصر، البعض يرجحون أنها قتلت العمال الأربعة الذين قاموا بالحفر ثم دفنتهم فى حديقة القصر، وهو ما جعل المكان مرعباً خاصة فى الليل حيث لا يجرؤ أحد من الأهالى على الاقتراب من السور...

***

سرت رجفة فى بدن رزق عندما لمح بدراً ساعى مكتب المهندس كمال وهو يظهر أمامه بغتة من خلف الأشجار التى تحيط بموقف السيارات.

– يا اسطى.

نادى عليه مشيراً له أن يقترب.

بصعوبة أجاب رزق وهو يحاول أن يسيطر على أعصابة، التى أتلفها وجوده وحيداً وسط هذا الهدوء، وفى مكان بمثل هذه النظافة والجمال وبمواجهة مبنى باذخ الثراء تحيط به أشجار

عملاقة كثيفة الخضرة، ارتبك ولم يدر كيف يتصرف فى مواجهة هذا القادم؟ هل ارتكبت خطأ ما؟ ماذا يريدون؟ ماذا فعلت؟

– تعال يا اسطى.

صاح به بدر آمراً مستغلاً سطوته كصاحب مكان على الزائر الغريب، مشى رزق الأمتار التى تفصله عن بدر بخطوات متوجسة.

– خذ الشاى يا اسطى.

حتى هذه اللحظة لم يكن قد رأى من فرط ارتباكه صينية الشاى التى يحملها بدر، تناول كوب الماء وشربه دفعة واحدة قبل أن يمد يده ليمسك بكوب الشاى ويشكر الساعى الذى يشبه مخبرى البوليس، ليس فقط فى مظهره ولكن فى فظاظة تعامله وتعاليه.

– الحركة هنا بحساب، ممنوع التحرك فى المكان.. فاهم يا اسطى!

– فاهم يا ريس.

أجاب رزق متلعثماً وهو يسب فى سره ويلعن أم المأمورية وآباء وأجداد بدر، ثم أضاف قبل أن يتركه بدر.

– عموماً تشكر على الشاى يا ريس.

غور.. داهية تأخذك، راجل رخم، ربنا يعدى المأمورية دى على خير ويكفينا شر المستخبى، لكن كوب شاى مضبوط ويعمر الدماغ، جاء فى وقته تماماً.. حدث رزق نفسه، وهو ينظر شزراً

ناحية بدر الذى رجع عائداً بخطوات متمهلة واثقة حتى اختفى من حيث جاء خلف مبنى القصر.

كان بدر قد فهم من الحديث الذى دار فى مكتب المهندس كمال مع ضيوفه أن سائق سيارتهم رجل قليل الأدب وعدوانى فتعامل معه على هذا الأساس، ولم يفكر فى دعوته ليجلس معه فى البوفيه ويشرب الشاى على راحته حتى تنتهى مأمورية الدكاترة، التى يعرف بحكم خبرته أنها ستستغرق عدة ساعات، بل فضل أن يُظهر له العين الحمراء ويتركه بجانب سيارته ويا دار ما دخلك شر، الإنسان يقصر المسافات مع هذه الأشكال أحسن!

بدر رجل ريفى، يعيش فى قرية قريبة من القصر، واحدة من القرى التى كانت فيما مضى جزءاً من أملاك الأميرة، وهو ينتمى إلى سلالة من الفلاحين الأجراء عملوا لعقود طويلة من الزمن فى حقول وأطيان عائلتها.

بعد أن نال قسطاً من التعليم قضى سنوات طويلة مجنداً فى الجيش، خاض خلالها عدة معارك، ثم التحق بالعمل فى وظيفة حكومية بإحدى الهيئات السيادية، ولم يلبث أن انتقل بعد إجراءات أمنية بالغة التعقيد ليعمل فى القصر القريب من قريته، يخرج فى الصباح الباكر على دراجته الحديدية السوداء القوية العتيقة الطراز والمصنوعة من الصلب المتين، والتى يهتم بصيانتها وإصلاحها وتشحيم جنزيرها أسبوعياً، ليقطع عليها مشوار

الذهاب إلى القصر فى حوالى نصف الساعة، يمر خلالها على الحقول عبر طرق ترابية ضيقة، ويعبر جسرين، أولهما جسر خشبى صغير مخصص للمشاة، مبنى منذ زمن بعيد على قناة رى فرعية تغذى أراضى قريته بالمياه، والثانى جسر خرسانى حديث إلى حد ما، تعبر عليه السيارات فوق قناة الرى الرئيسية.
فى طريقه إلى العمل، يتوقف بدر عند محل البقالة الواقع عند نهاية القرية مرتين فى الأسبوع، يشترى تموين البوفيه وما يحتاجه من شاى وسكر وبن وينسون وحلبة وسجائر، ثم يستأنف مشواره اليومى بين حقول الذرة والبرسيم والغلة والخضراوات بأنواعها، يضغط بدال الدراجة بانتظام وبآلية تعودها من كر الأيام على الطريق، بدت معها الدراجة كأنها تسير تلقائياً، بينما ينظر متأملاً الزرع والحقول، يحيي من يقابله من الجيران وأهل قريته ويُصبح عليهم، تقريباً نفس الأفراد يلقاهم يومياً على رؤوس الغيطان وحافة الطريق وهم يسحبون أبقارهم وجواميسهم وحميرهم ويحملون فئوسهم ومعاولهم، متجهين إلى عملهم الشاق فى الحقول، فى قرارة نفسه يشعر بدر بشيء من التميز عليهم لخروجه من دائرة العمل الزراعى الشاق إلى رحابة الوظيفة الحكومية، مازال يتذكر أيام طفولته وصباه التى قضاها فى الحقول، الأرجل المغروسة فى الماء والطين اللزج والوقفة تحت صهد الشمس وكسرة الظهر تحت وطأة الفأس.

النظر إلى الحقول والتمتع بمنظرها من بعيد شيء والعمل فيها شيء آخر تماماً، الأرض قاسية بل فى منتهى القسوة، لا تعطى ثمارها وزرعها إلا بالشقاء والتعب، هذا الجمال الأخاذ المريح للنفس، البساط الأخضر بدرجاته المتعددة، كل قطعة أرض لها درجة لون مختلفة حسب نوع المحصول، الممتد بمنتهى الإبداع حتى نهاية الأفق، والذى تتخلله تجمعات من أشجار النخيل السامقة، وأنواع أخرى من الأشجار الضخمة القريبة من السواقى وماكينات الرى، تتناثر هنا وهناك فى فضاء المشهد، حيث يستظل الفلاحون تحتها فى أوقات الراحة القليلة من قيظ الشمس، كل هذا مصنوع بالعرق والتعب وجهد الفلاحين عبر أجيال طويلة عاشت هنا على هذه الأرض تزرع وتحصد الخير الذى يقل الآن ويتراجع عاماً بعد عام.

فى طفولته كان فضاء الحقول يمتد فى الجهات الأربع لا يحده البصر، الآن تظهر المبانى، هذه العمارات الحمراء القبيحة تسد الأفق وتفسد ما صنعته الأجيال السابقة، حتى الطريق الذى تعوده لسنوات طويلة هادئاً يسير عليه مطمئناً خالى البال، يأخذ فى الازدحام بسيارات نصف النقل والميكروباص، يضطرونه للتزحزح إلى الحافة حتى يسير على حرف قناة الرى المجاورة للطريق خشية الدهس أو أن يصدمه أحدهم.

بعد نصف ساعة من السير بالدراجة يكون خلالها قد تغطى بالغبار وعادم السيارات يظهر قصر الأميرة.

***

طالما سمع وهو صغير حكايات عن الأميرة من أقاربه كبار السن، الذين عاصروها وعملوا فى أملاكها الشاسعة، كانوا يرونها من بعيد وهى تتمشى بين حقولها تأمر وتنهى وحولها رجال حاشيتها وموظفوها، أو وهى تتريض على حصانها وتقطع به مسافات كبيرة، شقراء رائعة الجمال، طويلة القامة ممتلئة الجسد، يتطاير شعرها الذهبى الطويل خلفها عندما تركض بالحصان وتسبق رفاقها.

من تعاملوا معها وهم قلة يؤكدون أنها كانت مندفعة ومتهورة متقلبة الأحوال وعصبية المزاج، تعامل الحيوانات أفضل من معاملتها للفلاحين! وأن أيامها كانت سوداء وزمنها زمن فقر وذل، والحمد لله أنها غارت من البلد، داهية لا ترجعها!

يقولون إنها تمكنت من الخروج بأموالها ومجوهراتها ومغادرة البلد عندما انتهى عهد أسرتها وزالت دولتهم، لكنها تركت مزرعة الخيل بما فيها من سلالات أصيلة وتركت كذلك قصورها مكدسة بالتحف والنفائس الغالية.

فى أحد الأيام عندما كان بدر شاباً وقبل أن يلتحق بالجيش مجنداً، تعرف على عم حسنين الذى كان يعمل جنايناً فى حديقة القصر،

كان قد طعن فى السن وخرج على المعاش من وظيفته الحكومية، فبعد رحيل الأميرة ومصادرة أملاكها، وظفت الحكومة الجديدة معظم العاملين فى القصر من موظفين وعمال فى الهيئات والمصالح التابعة للدولة، عمل عم حسنين لبقية حياته فى مديرية الزراعة حتى وصل إلى سن التقاعد.

تعارفا عن طريق المصاهرة بين عائلتيهما، بعد أن تزوجت إحدى بنات شقيق بدر الأكبر من حفيد عم حسنين، الذى كان يسكن القرية المجاورة لقريتهم، كثيرا ما كان عم حسنين يتحدث عن ذكريات الماضى كعادة الشيوخ عندما يتقدم بهم العمر وينتابهم الحنين لأيام شبابهم وفتوتهم، ويتذكرون تلك الأيام بأسى ويترحمون عليها، أو بالأحرى يترحمون على زمن شبابهم الذى طواه العمر، فى هذا الوقت لم يخطر على عقل بدر أنه سيعمل فى قصر الأميرة ذات يوم وأنه سيصبح أحد موظفيه الحكوميين، لكنه كان شغوفاً بالاستماع إلى جد صهره وهو يتكلم عن الأميرة وأطيانها وعزبتها ومزرعة خيولها، والخواجات الذين كانوا يأتون من أوروبا خصيصاً ليشتروا الخيل المؤصلة بشهادات نسب تمتد لسابع جد.

كان عم حسنين يحكى وهو يضحك عن مشكلته هو وزملائه مع الطواويس والغزلان، التى كانت تسرح فى الحديقة وتأكل الزرع وتتلف نباتات الزينة التى يتعبون فى غرسها باستمرار ورعايتها،

كان الزرع يصعب علينا بعد التعب والمجهود إن الغزالة تقطع فيه بأسنانها، لكن الأوامر كانت صارمة فيما يتعلق بالغزلان، نتركها تلعب وتأكل كما تريد دون أن يزعجها أحد، ونحن علينا تنظيف مخلفاتها وإصلاح ما تفسده فى الزرع! أما الطاووس فمشكلته كانت أهون على الأقل لم يكن يأكل من الزرع لكن يترك الكثير من المخلفات فى كل مكان!

يتوقف عم حسنين طويلاً أمام الحفلات الباذخة التى كانت تقام فى حديقة القصر حيث مكان عمله، لم تكن هذه الحفلات تقام كثيراً، ربما مرة أو مرتين فى العام، لكن ليلة الحفلة كانت ليلة من ليالى العمر.. لا تُنسى، يظل الإنسان يتذكرها لفترة طويلة، كان هو وبقية الجناينية يتلقون الأوامر بتجهيز الحديقة للحفلة قبلها بأسبوع على الأقل، يضاعفون جهدهم فى العناية بالأشجار والشجيرات ونباتات الزينة والزهور، وفحص البلاط المحاط بأحواض النباتات وطلاء الأسوار المؤطرة لها، أما الغزلان والطواويس فكانت تُحبس وتُعزل فى مكان بعيد قبل يومين من الحفلة.

عند حضور متعهد الحفلات يجد الحديقة تضوى وتتألق، يأتى من أحد الفنادق الكبرى أو محلات الحلويات الشهيرة فى الصباح الباكر ليوم الحفلة، طابور من العربات تحمل العمال والطباخين والسفرجية، وتتبعهم عربات أخرى محملة بالتجهيزات، الموائد والكراسى والسجاجيد والمفارش والأطباق والأكواب والفناجين

وأنواع الكؤوس المتعددة، ثم عربات المأكولات ذات الصناديق الخلفية المغلقة التى تتراص على رفوفها الداخلية كافة ما يحتاجه الحفل من الأطعمة، وزجاجات المشروبات بأنواعها الروحية والغازية وعلب الشاى والبن والسكر، تقف العربات بجوار باب المطبخ ويشرع الطباخون ومساعدوهم فى نقل ما فيها من أطعمة ومشروبات إلى طاولات المطبخ ليبدأوا عملهم على الفور، بينما يتجه العمال والسفرجية إلى الحديقة حيث يشرعون فى فرش الموائد والكراسى وتنسيقها، عندما يأتى عصر اليوم يكونون قد انتهوا وأصبح المكان مهيئاً لاستقبال الضيوف.

تأتى سمو البرنسيسة من الاصطبل قبل العصر، وقبل أن تصعد لجناحها وهى مازالت بملابس الخيل تذهب لترى بنفسها الاستعدادات النهائية للحفلة وتضع اللمسات الأخيرة، تبدأ بالمطبخ، يكشفون أمامها أغطية الصوانى الفضية لتنظر إلى اللحوم بأصنافها والديوك الرومى والتورتات وقطع الجاتوه والحلويات الشرقية، ترفع الكؤوس والأكواب الكرستالية والأطباق فى الضوء لتتأكد من نظافتها وتختبر الشوك والملاعق والسكاكين كذلك، بعد أن تنتهى من البوفيه والمأكولات تخرج إلى الحديقة، تتنقل بين الموائد وتنظر متأنية فى أرجاء المكان وهى تمشى بهدوء وبمنتهى العظمة وحولها موظفو القصر ورئيس السفرجية والمتعهد يستمعون لأوامرها وينفذونها فى الحال.

كانت مهذبة جداً وصاحبة كبرياء لكن بغير تكبر ولا غطرسة، وعلى عكس غيرها من الأميرات والأمراء الذين كانوا لا يتكلمون ترفعاً وكبراً مع خدمهم البعيدين من العمال البسطاء، كالجناينية وصغار السفرجية والغفر والبوابين ممن يقفون على بوابات القصر على مدى اليوم لفتحها أمام السيارات، جعلها تعاملها مع الخيل ووجودها طوال النهار بين السياس، تتكلم مع خدمها بل وتعرف أسماء معظمهم، خاصة القدامى الذين قضوا سنوات فى خدمتها، هذا الكلام قد يبدو غريباً اليوم، أن يعرف الإنسان أسماء من يعملون عنده، لكن لو عرفت أن العشرات وربما المئات من العمال والخدم بمختلف مهنهم كانوا يعملون لديها، لفهمت ما أقصده.

تختتم جولتها بتفقد المنصة التى سيعزف عليها الموسيقيون، كبار المطربين والمطربات كانوا يأتون بمصاحبة فرقهم الموسيقية للغناء فى حفلات الأميرة، أعداد كبيرة من العازفين يوجدون فى المكان ويعد لهم مكان خاص خلف المنصة – شبه مظلم توضع فيه إضاءة خافتة عمداً حتى لا يراهم ضيوف الحفلة – ليستريحوا فيه ويتناولوا عشاءهم ويدخنون ويشربون، أما المطربون والمطربات من نجوم الغناء فكانوا يجلسون بين الضيوف ويُحتفى بهم حسبما يليق بنجوميتهم وشهرتهم!

بعد غروب الشمس بقليل يبدأ ضيوف الحفل فى التوافد تباعاً، أفخم أنواع السيارات تحمل أمراء وأميرات، رجال وسيدات الطبقة الأرستقراطية ووجهاء المجتمع، إلى حديقة القصر حيث كل شيء يتلألأ ويلمع.

كنا نقف فى مكان بجوار المطبخ نتابع الحفل من بعيد مع عمال القصر الآخرين، نتفرج من بعيد وننتظر نهاية الحفلة حيث تُوزع علينا الأطعمة، لحوم ودجاج وحلويات من كل صنف، فى علبة مخصوصة، كل رجل من العمال له علبة يتسلمها من رئيس السفرجية.. إيييه.. كانت أيام.

البرنسيسة لم تأخذ شيئاً، لا فلوس ولا مجوهرات، كانت مسافرة بلاد بره لا مؤاخذة مع زوجها والولدين، ولم تستطع العودة بعد ذلك أبداً.. وبعدين كل ثروتها كانت فى الخيل والأطيان وأى حد يقول غير كده يبقى كذاب، سمعنا إنها عاشت أيام فقر والدنيا تنكرت لها بعد العز والغنى، كانت شباب وجمال وسلطة ومال.. لكن حكم الزمن!!

obeikandl.com

4

لأن المرتب الحكومى لا يكفى "رزق" ولا يغطى مصاريف أولاده الكثيرين، فإنه يضطر للعمل مساءً سائق ميكروباص، مهنة متعبة ومجهدة للأعصاب لكنه يستمتع بها! أفضل ساعات اليوم بالنسبة له هى تلك التى يقضيها فى الميكروباص، الأمر مختلف عن سيارات الصالون العادية، الميكروباص يعطى شعوراً بالقوة والسيطرة، الموتور قوى ويستجيب بمنتهى السهولة لأقل ضغطة بدال السرعة، كأنك تمتطى وحشاً مروضاً تتحكم فيه كيفما تشاء، تجلس ورأسك فوق جميع سائقى سيارات الصالون، هؤلاء الجبناء يفرون من أمامك كالفئران ويوسعون لك الطريق رغماً عنهم، فلا طاقة لأحدهم مهما كانت فخامة السيارة التى يقودها بالصمود أمام الوحش الذى تسوقه أنت فى أمان تام، لا تخاف ولا تخشى أحداً، تسوقهم وتتحكم فيهم وتسيطر على الشارع وتفرض سطوتك عليه..

أمام عجلة القيادة أشعر أنى ملك، قائد، تنتابنى قوة هائلة، قوة الميكروباص تصبح جزءاً من قوتى أو تضاف كلها إلى قوة جسدى، أجرى كالمجنون لا يسيطر علىّ أحد ولا يوقفنى أحد، أقف عندما أريد وحسب مزاجى فى أى مكان، ركاب تنزل

وركاب تطلع لتحتل أماكنهم، أندفع بعدها مرة أخرى متخطياً الجميع ومتسابقاً مع الزملاء الآخرين، أبناء المهنة، جميعنا ناس لبط ومشاكسون بطبيعتنا، خلقة ربنا، كالذئاب لا نعرف الرحمة، نصطاد القرش من فم الأسد، لابد أن أسابقهم على الطريق وأسبقهم للموقف حتى ألحق الدور قبلهم.

فى بداية عملى الليلى معهم، اعتبرونى موظف حكومة، يعنى راجل خائب وغلبان أتى ليسترزق بضعة جنيهات زيادة على المرتب، لكنى علمتهم الأدب وعرفتهم كيف يلتزمون حدودهم وهم يتعاملون معى، فى أى مصيبة أو مشكلة، آخذ حقى بذراعى ولسانى وأغلب أجدع واحد فيهم.

معظمهم صيع ليسوا من أبناء المهنة، ليسوا سائقين ولا عمل لهم أصلاً، كانوا عاطلين بلا حرفة، ولا يعرفون القراءة والكتابة؟! نزلت عليهم مهنة الميكروباص هدية من السماء! لتكون مصدر رزق لهم، مهنة مربحة أصبحت مطمعاً لمن لا مهنة ولا عمل له! وجمعت الصايع والبلطجى والحرامى وكلهم يقودون بدون رخص قيادة؟!!

منذ أن كنت طفلاً والشارع هو مكانى، من غير سبب وجدت نفسى أحب الشارع والقعدة فيه مع العيال والجرى هنا وهناك ومشاكسة خلق الله،، أطلع من المدرسة على الشارع وأروح

البيت بعد أذان العشاء، لكنى صمدت فى التعليم حتـــى حصـــلت على الإعدادية بطلوع الروح.

قبل أن أنتهى من التعليم عملت فى ورشة ميكانيكا مضطراً تحت ضغط الفقر، وتركت اللعب فى الشارع، أحببت قيادة الســيارات أكثر من تصليحها، وعلى كل حال لم أكن أمتلك المهارة اللازمة لأنتقل من مرحلة الصبى أو المساعد إلى مرتبة الأسطى، لــذلك وجدت القيادة التى أتقنتها بسرعة أنسب لـــى فقـــررت اتخاذهـــا حرفة، تتيح لى البقاء فى الشارع طوال اليوم والتحرك من مكان لآخر متجولاً فى أنحاء المدينة الشاسعة وأحيائها الكثيرة..

لكن قبل أن يتاح لى العمل وقبل أن أحصل على رخصة القيادة، دخلت الجيش كعسكرى مجند، ثلاث سنوات قضـــيتها بـــالطول والعرض فى عمق الصحراء، تعلمت فيها الأدب، وعرفت كيف أن الحكومة تستطيع أن تفعل بالإنسان منا ما تريد، وتجبره على الخضوع لإرادتها وقبول ما يكره شاء أم أبى! من حسن الحظ أن الحروب التى كان الجيش يخوضها طوال عقود من الزمن، كانت قد انتهت للتو وقبل التحاقى بالخدمة العسكرية مباشرة، لكن ظل الوضع داخل المعسكرات فى حالة تأهـــب، وذكـــرى الحـــرب والمعارك تفرض وجودها على الجميع.

كنا نذهب إلى ميدان الرماية للتدرب علـــى اســـتعمال الســـلاح وإطلاق النار باستمرار، اكتشفت هناك أنى امتلك مهارة خاصـــة

فى التصويب على الأهداف، وهو الأمر الذى كان يثير تعجب الضباط وصف الضباط الذين كانوا يشرفون على الميدان، قال لى أحدهم ذات يوم، إن وضعك شاذ! فعادة ما يكون القناص ذكياً وعقله مرتب وسلوكه منضبط وإنسان منظم فى كل ما يفعله، لكن واحد أهوج مثلك وبليد العقل كيف له أن يمتلك هذه الموهبة؟!

كانت قدرتى على التصويب وتحقيق درجات عاليه فيه، تثير استياءهم واعتبروا أنى متهور أكثر مما ينبغى لجندى قناص، وأنى بشكل عام غير مأمون العواقب فى التعامل مع السلاح، لذلك لم يلبثوا أن أبعدونى إلى العمل فى المطبخ!

لم يكن بإمكانى التشاجر مع أحد، فقوانين الجيش تمنع ذلك منعاً باتاً وتعاقب الجندى الذى يتشاجر مع زملائه عقاباً صارماً، لذلك تحاشيت الشجار تماماً لكن لسانى كان ينطلق ساخراً بالنكت والشتائم والتريقة مع أمثالى من المجندين على سبيل المزاح، كنت أفعل ذلك للتسلية وتضييع الوقت كما هى عادتى التى تربيت عليها مع الأصحاب فى حينا، لكن الريفيين منهم كانوا يضيقون بهذا المزاح ولا يتحملونه خاصة عندما كنت أسخر من لهجتهم وطريقتهم الممطوطة فى نطق الكلمات، والتى لم أكن أملك نفسى من الضحك عند سماعى لها، فأعابثهم مقلداً كلامهم مما كان يثير حنقهم ويوغر صدورهم علىّ..

كانوا ماكرين وعلى قدر من الخبث، لكنه هذا الخبث الساذج المكشوف لأبناء المدينة، ممن لفوا وداروا فى الحوارى ولديهم باع طويل فى فنون الصياعة، ويعرفون عن الحياة أضعاف ما يعرفه الشاب الريفى الذى لم يخرج من قريته ولم ير الدنيا والشوارع الإسفلت إلا عند تجنيده بالجيش، كانوا ينتقمون منى ومن سخريتى ومزاحى معهم بالكيد لى، وبالشكوى الدائمة إلى الصولات وصف الضباط وجميعهم مثلهم من الأرياف، مما جعلهم يضطهدوننى ويشيعون عنى كل الصفات السيئة كمشاغب ومتهور وتربية شوارع!

– إنت يا عسكرى رزق مش تحترم نفسك وتبقى بنى آدم محترم!

– وأنا عملت إيه يا حضرة الصول؟

– إنت هاتستعبط يا واد يا رزق؟

– حصل إيه يا حضرة الصول!

– زملاؤك يشتكون منك ومن قلة أدبك، أسمع.. الجيش لا يعرف حركات الشوارع بتاعتك، هنا يوجد انضباط واحترام، شغل الحوارى لن ينفعك هنا وسوف يضرك.. وفى النهاية ستدفع الثمن، الجيش لا يترك حقه.. يعنى العسكرى الذى يخالف تعليمات الضبط والربط تبقى أمه دعت عليه بالبهدلة والمرمطة،

يعنى ستعاقب وتبقى وقعتك سوداء مع الجيش، إذا لـم تحتـرم نفسك وتحترم زملاءك.. فاهم.

– فاهم يا حضرة الصول.

– أيوه كده، خلص مدتك فى الجيش على خير، علشـان تأخـذ شهادة تأدية الخدمة العسكرية مجلله بالجلة وتمشـى مـن هنـا بالسلامة.

آآآه يا حضرة الصول عبد البديع يا ابن الكلاب يا فلاح، لو شفتك مرة فى الشارع بعيداً عن الجيش وأحكامـه، لعرفتـك مقامـك ومسخرتك وسط الناس ومسحت بكرامتك بلاط الرصيف..

حدث هذا فى الشهور الأولى، لكن بعد ذلـك وخـلال الـثلاث سنوات الطويلة التى قضيتها فى الجيش تغيرت تلـك العلاقـات وتبدلت مع طول العشرة إلى علاقة زمالة وصـداقة، أصـبحوا يتقبلون مزاحى ويضحكون ويبادلوننى المـزاح بـلا ضـغينة، وأصبحت أنا أكثر تفهماً لهم ولطبيعتهم التى شكلها الريف بزرعه ونباتاته وأشجاره وترعه ومصارفه وبيوته الطينية التى تلاصق الزرائب حيث تعيش المواشى من أبقار وجاموس، التى عرفـت أنها بمثابة رأس مال مدخر ومصدر أساسى للغذاء، ضحكوا هم منى عندما اعتقدت أنه اللحم، وانهالوا علىّ بالتريقة هذه المرة.

– يعنى كل ما نحب نأكل لحمة، ندبح جاموسة ولا بقرة! ده إنت صحيح عبيط وعلى نياتك.

لم أكن أتصور أن الجبن والزبد والسمن تُصنع من اللبن، لكنهم شرحوا لى أهمية اللبن وما ينتجه من أغذية ضرورية يعتمدون عليها خاصة الجبن.. وأنهم يعتمدون على الطيور التى يربونها فى البيوت كمصدر للحوم.. لم أستطع أبداً أن أستوعب كيف أن اللبن يتحول إلى زبد وسمن، الجبن ممكن! لكن حكاية الزبد والسمن لم تدخل عقلى أبداً بصراحة؟!

تعودت على لهجتهم ولم أعد أسخر منها، وكنت أحكى لهم عن حياتى فى المدينة ومغامراتى فيها وعن عملى فى الورشة، وعن الحى الذى أسكنه، وأسمع منهم عن حياتهم فى الريف وعن عملهم فى الحقول منذ كانوا أطفالاً.

جمع لطع الدودة من حقول القطن ثم جنى اللوز عندما ينضج ويتفتح بعد ذلك، وشتل الأرز فى الصباح الباكر والأرض مغمورة بالماء، ودراس القمح وتذريته لفصل الحبوب عن التبن، ومواسم الحصاد وبيع المحاصيل التى يفرحون بها وينتظرونها بعد شهور من العمل المضنى حيث لا يتوفر المال لدى أسرهم إلا فى تلك الأيام من السنة.

تحولت علاقتى مع الصول عبد البديع أيضاً إلى علاقة بها الكثير من المودة حتى إنه صار يعتمد علىّ فى بعض أمور الكتيبة، خاصة بعد انتهاء السنة الأولى ودخول عدد من الدفعات بعدى، وأصبح لى أقدمية عليهم، كان يستدعينى أحياناً فى نهاية اليوم

وبداية دخول الليل الممل فى المعسكر، لنتسلى بلعب الطاولة التى يحب لعبها لكنه لا يتقنها، اكتشفت مع الأيام أنه رجل طيب وغلبان ومنظر على الفاضى، كنت أغلبه فى معظم الأحيان بألاعيب وحيل المقاهى الشعبية وشغل الثلاث ورقات الذى تبحرت فيه منذ الطفولة، أباغته وأشوش تفكيره بسرعة اللعب ورمى الزهر وتحريك الأقراص وخبطها بقوة على الأرضية الخشبية، فيرتبك ويحاول التماسك والسيطرة على اللعب بلا جدوى، لكنه فى النهاية يبتسم ويسبنى ضاحكاً.

– إنت يا واد يا رزق صايع ودايرا! إنت بتسرق فى اللعب، إنت حرامى يا وله؟

– أبداً يا حضرة الصول، هو أنا بتاع الكلام ده برضه؟

طبعاً فى هذه الجلسات لابد أن تكون علبة سجائرى الموضوعة بجوار الطاولة فى متناول يده، يمد أصابعه بين الحين والآخر ليسحب سيجارة، مدخراً علبته التى تُطل من جيب قميصه ليوم أسود، تلك العلبة كانت تمكث فى جيبه لشهور قبل أن تنتهى ويصل لآخر سيجارة فيها!

***

أثناء السنة الأولى فى الجيش قابلت الدكتور ممدوح للمرة الأولى، كان فى نهاية خدمته كضابط احتياط، قضى سنوات طويلة فى الجيش واشترك فى الحرب، تذكرته على الفور بمجرد أن رأيته

بعد ذلك بسنوات عندما توظفت فى الحكومة وعملت معه فى نفس الهيئة، لكنه بالطبع لم يتذكرنى لأنه لم يعرفنى من الأصل، كنت ضمن مجموعة كبيرة من العساكر، أراه من بعيد بجسده النحيل وقتها وقامته المتوسطة الطول فى المعسكر وفى مطعم الضباط، دون أن أتكلم أو أتعامل معه ولو مرة واحدة، لم أذكره بهذا الأمر أبداً، وجعلته طى الكتمان برغم المأموريات الكثيرة التى خرجنا فيها معاً، خشيت أن يعاملنى حتى ولو رغماً عنه كعسكرى خدم تحت إمرته فى يوم من الأيام.

كان معروفاً لدينا كجنود بشدته وصرامته كضابط، وإن عسكريته خشنة برغم كونه ضابطاً احتياطياً، لكنى وجدت شخصيته قد تغيرت عندما قابلته فى الحياة المدنية وعملت معه فى المركز، لم يعد حاد الطباع كما كان فى الجيش، وأصبح أكثر ميلاً للصمت وقلة الكلام، خلال مشاوير السفر التى تستغرق ساعات، لم يكن يتكلم معى إلا فيما يتعلق بالعمل، الطرق التى سنمشى عليها، البلاد والقرى التى سنتوقف عندها، لكنه كان يستغرق فى الكلام مع زملائه عندما يكون معنا عدد منهم فى المأمورية، يتكلمون عن التجارب والأبحاث العلمية التى يقومون بها على النباتات والخضراوات وأشجار الفاكهة، لم أكن أفهم من كلامهم إلا أقل القليل، فعندما يبدأون الحديث عن عملهم تتحول الكثير من كلماتهم إلى اللغة الإنجليزية، مما يجعلنى أسمع حوارهم كأنه

رطانة خواجات لا معنى لها بالنسبة لى! أتركهم لشأنهم ونقاشهم وأنظر للطريق منتبهاً لعملى.

القيادة على طرق السفر الزراعية أصعب بكثير من القيادة داخل المدن، قد تفاجأ بجاموسة تقطع عليك الطريق دون إنذار، أو حمار يطلع من تحت الأرض ودون مناسبة تجده فى منتصف الشارع، وربما تضطر للسير خلف جرار لا يريد أن يفسح لك الطريق لمسافة طويلة، أو تفاجأ به قادماً فى مواجهتك بعكس اتجاه السير!

بمجرد خروجى للمأمورية أصبح مسئولاً عن السيارة، أى خدش يصيبها أتحمل إصلاحه من جيبى، وكذلك المخالفات المرورية، تعليمات الوزارة صارمة بشأن السرعة وأى تجاوز للسرعة المقررة، يتحمل السائق تبعاتها، ويدفع قيمة المخالفة صاغراً لذلك يلتزم جميع السائقين رغماً عنهم بالقانون، الحكومة تعطينا المرتبات وتتحكم فى الخصم منها كيفما تريد، أسهل شىء بالنسبة لهم الخصم من مرتباتنا وإعطاؤنا الجزاءات على أى هفوة.

الهيئة أو المركز كما يسمونها لديها سيارات نصف نقل كابينة مزدوجة، وأتوبيسات صغيرة حمولة عشرين راكباً، نخرج بها حسب نوع المأمورية والعدد، أما سيارات الملاكى فخاصة بالموظفين الكبار بداية من درجة مدير عام، وهى السيارة التى أصبح الدكتور ممدوح يستخدمها منذ حوالى سنتين.

***

تنقلت بعد تسريحى من الجيش فى العمل على عربات نصف النقل لعدة سنوات، كنت أتمنى أن أمتلك سيارة خاصة بى حتى لا يشاركنى أحد فى المال الذى أجنيه من عملى، لا مالك السيارة ولا غيره، كنت أعطيه نصيبه من المال يومياً وأنا أشعر أنى أقطع من لحمى، وأنه يحصل على ما أكسبه بالتعب والشقاء والعرق بسهولة وبلا حق؟!

كنت أكسب كثيراً وأنفق كل ما أتحصل عليه من مال بلا هوادة، جرفتنى الحياة واندفعت خلف ملذاتها بطيش الشباب، أعيش اليوم ولا أفكر فى الغد ولا أحمل هم المستقبل، تمنيت أن أجمع من المال ما يكفى لشراء سيارة مستعملة، نصف عمر، رخيصة الثمن، لكنى لم استطع توفير أى مبلغ يكفى حتى للقسط الأول من ثمن السيارة.

فى أحد الأيام عرفت بالمصادفة من بعض الناس أن الحكومة تطلب سائقين للعمل لديها، لم أتردد ساعتها وتقدمت بأوراقى للوظيفة، على الرغم من أنى لم أفكر فى هذا الأمر من قبل وكنت قد هيأت نفسى للعمل كسائق نصف نقل إلى آخر عمرى، لكن وجدتها فرصة لا يجب أن تضيع من يدى، ولم يكن هناك ما أخسره لو رفضوا تعيينى.

بعد مشاوير كثيرة وقفت خلالها فى طوابير لا حصر لها وختمت أوراقاً وصورت أخرى، ولصقت طوابع دمغة وقمت بعمل مستخرجات لأصول الشهادات، ثم خضعت للفحص الطبى، تم قبولى وتعيينى فى وظيفة سائق، لأصبح موظفاً حكومياً.. آخر ما كنت أتصوره لمستقبلى عندما تركت المدرسة بعد حصولى على الإعدادية، وخروجى للعمل فى سن مبكرة، العمل فى الحكومة ميزة حتى مع ضعف المرتب، أهم ما فيه المعاش المضمون عندما يصل الإنسان لسن التقاعد، وكذلك التأمين الصحى..

بعدما تزوجت وأنا فى نهاية العشرينيات من عمرى، أصبح معاش التقاعد أمراً ضرورياً بالنسبة لى لتأمين مستقبل أولادى وبناتى، ثلاث بنات وولدين، جاءوا إلى الدنيا تباعاً وقبل أن أبلغ الخامسة والثلاثين، ولم يعد لى هم فى الدنيا سوى إطعامهم وكسوتهم والجرى خلف الرزق فى كل مكان من أجلهم هم وأمهم، ست نكدية بطبيعتها مثل كل الستات لكنها طيبة وغلبانة وكمان قريبتى، من نفس العائلة الفقر التى أنتمى إليها لسوء الحظ، كانت حلوة وملفوفة الجسم ومقلوظة وهى فى سن الشباب، اتجننت لما شفتها أول مرة، وأردت أن أتزوجها بأى ثمن، لكن دلوقت يا حفيظ.. وزنها يمكن ربع طن!!

الترف الوحيد الذى أقدر عليه الآن هو جلسة المقهى لمدة ساعة أو ساعتين فى آخر الليل مع الأصدقاء القدامى.

ما فعلته فى شبابى المبكر من طيش وصياعة وسرمحة دفعت ثمنه غالياً، فى معظم الأوقات وبرغم عملى صباحاً ومساءً وما أعانيه من شقاء أجد جيبى خالياً من المال، وأدبر أحوالى بصعوبة.. أعيش تحت ضغط مستمر والعيال مطالبهم لا تتوقف ولا يوجد فى قلوبهم رحمة تجاه أبيهم؟! حتى أصبحت أكره العودة للبيت من قائمة الطلبات التى أجدها فى انتظارى، هذه القائمة تكبر سنة بعد أخرى مع زيادة أعمارهم، والمصيبة أن الأسعار هى الأخرى تزيد وترتفع عاماً بعد عام.. بلا رحمة!

***

فى زمن الطفولة أذكر أن الحياة كانت مملة وثقيلة الدم، الشوارع فاضيه والدنيا ساكتة، كنا نفرح لما نشوف عربية ماشية فى الشارع، كل ساعة مرة، أما الليل فكان فى منتهى الكآبة، ظلام فى كل مكان، فى الشوارع والميادين والبيوت، الدكاكين كلها مغلقة من بعد العشاء، والخلاء حول الحى واسع ومخيف فى الليل، الغيطان سوداء كحل ومسكونة بالعفاريت، ومن يتجرأ ويذهب هناك أو تضطره الظروف أن يمر منها فى الليل تبقى وقعة أمه هباب، كنا نسمع حكايات يشيب لها شعرنا، لكن بعد ذلك لما وصلنا سن الشباب كنا نذهب إلى وسط الزراعات لنجلس على حافة الغيطان، كانت قد ابتعدت كثيراً والعمار دخل عليها وكل الأراضى المزروعة القريبة من حينا تحولت إلى شوارع

ومبانٍ، كنا نتوغل فيها ونحن خائفون برغم عددنا الكبير خمسة أو ستة شبان نشجع بعضنا ونمشى مشواراً طويلاً حتى نخرج من الحى ونصل إلى الغيطان، لنجلس جلسة مزاج على راحتنا، مع سجائر الحشيش وزجاجة خمرة.

كنت أجلس وأنا متوجس برغم الصحبة وجسدى القوى المتين البنيان الذى تأسس على الفول والطعمية والعدس والكشرى والمحشى، متوقعاً أن يظهر بين لحظة وأخرى عفريت من هذه العفاريت التى كدت أحفظ أشكالها وطرق كلامها وحيلها التى ترعب بها البشر، لكن كل هؤلاء شىء والبرنسيسة شىء آخر، هم فى جانب وهى بمفردها فى جانب، كانت هى تحديداً دون غيرها بملابسها السوداء أو البيضاء وشعرها الأبيض المهوش، كهالة كبيرة حول وجهها العجوز المغضن بالتجاعيد وفمها الخالى من الأسنان، أكثرهم إثارة للخوف فى نفسى، حتى بعد أن كبرت وأصبحت شاباً وخضت عدداً لا يحصى من المشاجرات سواء الفردية أو الجماعية وضربت رجالاً عتاة وضُربت من آخرين، كنت لا أجرؤ على السير ليلاً بمفردى على الطرق الزراعية القريبة من الغيطان ناهيك عن السير بين الغيطان نفسها، مواجهة اللصوص وقطاع الطرق وكافة أنواع البشر لا تهز شعرة فى رأسى، لكن سكان تحت الأرض الذين يظهرون فجأة بلا مقدمات ودون أن تسمع لهم أى صوت، ثم تجدهم يتمددون فى الهواء

ويسدون الأفق أمام عينيك ويصبحون فى طول النخل أو يتبدلون فى لحظة إلى صورة كلب ينبح عليك ثم لا يلبث أن يتكلم معك بصوت رجل يهز الأرض تحت قدميك.. فشيء مرعب لا يطاق! أو لا أطيقه أنا، لا أستطيع أن أتشاجر معهم أو أصارعهم كما يمكن أن أفعل مع البشر وهذا ما يقلقنى ويجعلنى أرتبك وأشعر بالعجز تجاههم!

***

سلامة ابن صالح بسيونى، خفير فيلا وفيق الرسام، كان أصغرنا سنا، لكنه كان أكثرنا شقاوة وجرأة، قلبه كالحديد لا يخاف من شيء ولا يخشى أحداً، ويحب الشجار ومناكفة خلق الله بسبب وبلا سبب فى أغلب الأحيان، منذ صغره وهو معروف بيننا باسم شهرته سَلُّومة.

فى صباه اشتهر فى الحى بهوايته فى ضرب الكلاب بالحجارة وخصى ذكور القطط، يتسحب بهدوء وفى يده حجر ضخم حتى يقترب من أى كلب من الكلاب الضالة المنتشرة فى شوارع حينا، والكلب غافل عنه بالأكل من كوم زبالة أو بالتمدد فى الشمس لتفلية جسمة من البراغيث، أو حتى بالسير آمناً فى الشارع، يمشى سلومة بهدوء صياد يقترب من فريسته، مقوس الظهر مراوغاً فى خطواته، إلى أن يصبح على بعد خمسة أو ستة

أمتار، لحظتها يشد ظهره ويفرد زراعه وفى لمح البصر يقــذف الحجر بقوة وبدقة نحو رأس الكلب فيصيبه إصابة بالغة!

كان صراخ الكلب المسكين وعواؤه وهو يجرى بجنون مسعور، من أثر الضربة المباغتة التى تلقاها على حين غفلة، يصل إلــى أسماعنا فى أى مكان بالحى عدة مرات فــى اليــوم، فنضــحك متعجبين من تلك الهواية الغريبة فى أذية هذه المخلوقات التى لم تكن تتسبب فى إزعاج أحد!

أما مع القطط فكان حاله أغرب، يقبض على ذكر القــط بــرغم شراسته ومخالبه الحادة ودفاعه المستميت عن نفسه، كان لديه من المهارة وخفة الحركة ما يجعله ينقض على القط بسرعة خاطفــة ليمسك به من قفاه، ويرفعه فى الهواء دون أن يتعرض لخــدش من أسنانه أو مخالبه، ثم يقلبه على ظهــره ويلصــقه بــالأرض ويشرع فى لف خيط رفيع حول خصيتيه بسرعة بالغة، ثم يعقــد الخيط عدة عقدات بقوة وهو يشد طرفيه بإحكام، وبعد أن يتأكــد من قوة الربط ومتانته يطلق القط قاذفاً إياه فى الهواء، فيقع على الأرض مذهولاً يصرخ ويدور حول نفسه ويتشقلب فى الهــواء ويخمش الفراغ بمخالبه باكياً، لكنه بعد دقائق قد تطول أو تقصر يستكين بجوار أى جدار ويهدأ وهو يُصدر أنيناً خافتاً لا ينقطع.. ربما حزناً على ذكورته التى ضاعت إلى الأبد!

خرج سلومة من التعليم قبل أن ينتهى من الدراسة الابتدائية، ولم يفلح أبوه فى إلحاقه بأى عمل مستديم فى أى ورشة من الورش الكثيرة التى بدأت تنتشر فى حينا انتشار النار فى الهشيم، كان يتنقل بين ورشة وأخرى دون أن يتقن صنعة أو يتعلم مهنة، يقضى بضعة شهور فى العمل ثم يمل ويتركه إلى غيره، سمكرى سيارات، ميكانيكى، كهربائى، عامل دوكو، بل إنه اشتغل لعدة أشهر فى صالون للحلاقة، لم يفلح فى تعلم صنعة واحدة من هذه المهن، برغم كثرتها وتوفرها أمامنا فى تلك الأيام، كان بطبيعته سريع الغضب يميل إلى الشجار ولا يتحمل رذالة الأسطوات وقسوتهم كما كنا نتحملها، فمع شقاوتنا ومشاغباتنا التى لا تنتهى كان الواحد منا يراعى أكل عيشه ولا يفرط فيه، فأهالينا الفقراء لم يكن بوسعهم تحمل نفقات العيش مع كثرة أبنائهم وبناتهم، كان لابد أن نعمل ونتعلم كيف نكسب القرش والجنيه حتى نتمكن من الحياة ونتغلب على الفقر الذى يرزح تحته أهلنا، أما سلومة فلم يكن يعبأ بشىء من هذا الكلام ولا يهتم به، ولم يكن يعيرنا انتباهاً من الأصل إذا تكلمنا معه فى هذا الأمر أو حاولنا التوسط له، ليرجع إلى العمل فى ورشة تركها منذ أيام، أو طرده صاحبها بعد مشاجرة قام بها!

كان فى بعض الأحيان يردد أمامنا أن حلم حياته أن يصبح صاحب مقهى، معلم يجلس على البنك ويجمع المركات من

العمال ويحاسبهم آخر الليل، لكنه فى نفس الوقت لا يرضى بالعمل فى أحد المقاهى كعامل ليسير على الطريق من بدايته ويتعلم الصنعة، كما اقترح عليه أكثر من واحد منا، وشوح بيده فى وجوهنا، كنت أتعجب من تفكيره ومن دماغه التى تشبه الجزمة القديمة، وغاظنى تصرفه وتشويحة يده فقلت له، أنت عيل رخم، ينعل ميتين أمك، ستعيش طول عمرك كالحمار لا تفعل شيئاً إلا الأكل والبرطعة، فضحك طويلاً ولم يرد علىّ!

فى جلساتنا المسائية على حافة الغيطان، كان سلومة يسخر ويضحك مستهزئاً إذا جاءت سيرة العفاريت ويشبعنا سخرية إذا لمح خوفنا منها، حتى سيرة البرنسيسة التى ملأتنا حكايات الطفولة بالرعب منها، شخر وسب وقال، يا ريت أشوفها.. سوف أمسك بها وأضاجعها وأعرفها كيف تكون الرجولة! اسكت الله يخرب بيتك، كنا نرد عليه ونحن نستعيذ بالله من الشيطان الرجيم.

كان يخرج فى عز الليل من بيته الواقع فى نهاية الحى وقتها ويشرف على الغيطان مباشرة، ويسير بين الزراعات ليسطو على الزرع ويجمع ما يقدر عليه من الثمار والخضروات فى شوال ليبيعها بعد ذلك، هذه المنطقة المزروعة كانت مرتعاً له، يحفظ سككها ويعرف مسارات قنواتها المائية ومدى اتساعها فى أماكن

وضيقها فى أماكن أخرى، وأنواع المحاصيل المزروعة فى كل قطعة أرض منها.

***

كنا نسمع أن الفيلا التى يحرسها أبوه مليئة بالتحف الغالية، وأن هذه التحف موجودة فى غرف مغلقة بداخلها، قضى وفيق الرسام صاحب الفيلا سنوات عمره يجمعها، بالإضافة إلى لوحاته التى كان يرسمها، هناك المئات منها داخل الغرف المغلقة أيضاً، يقولون أن هذه اللوحات تساوى مبالغ مالية كبيرة.

هذه الثروة الموجودة داخل هذا البيت القديم، كانت تثير خيالنا، وفى أحيان كثيرة كنا نتحدث عن هذه التحف والنفائس كأنها كنز بلا صاحب، ونتحسر على وجوده هكذا بلا فائدة ودون أن يستفيد منه أحد! وعندما كنا نفتح هذه السيرة أمام سلومة ونحن نمزح كان يغضب ويشتمنا، لكنه أخبرنا بعد ذلك فى إحدى جلساتنا، إن كل ما بداخل الفيلا مسجل فى محاضر وأن أباه قد وقع عليها بالاستلام عند بدء عمله كغفير لها، مما جعلها عهدة لديه، وهذا يعنى أن أباه سيدخل السجن فى حالة ضبط قطعة واحدة من هذه اللوحات والتماثيل أو غيرها من المقتنيات فى السوق أو عند أى تاجر تحف.

– يعنى لو كانت تنفع تتسرق كنت أنا أول واحد يسرقها ويبيعها! زمان كان الورثة وهم أقاربنا من بعيد، يأتون كل فترة ليعاينوا

الفيلا ويتمموا على ما فيها، لم يكونوا يسمحون لنا بالدخول، أبى فقط كان يصاحبهم إلى داخل الفيلا، كنت أتطلع إليهم من بعيد وهم يفتحون الأقفال الثلاثة الموجودة على بابها الحديدى المنقوش بالرسومات البارزة، ثلاثة رجال تأتى معهم أحياناً سيدة عجوز، كلهم من أبناء أشقاء وشقيقات صاحب الفيلا، لكنهم فى بعض المرات كانوا يأتون معهم بسيارة نصف نقل ويحملونها بلوحات كثيرة، عرفت من أبى أنهم يقيمون بها معارض فى داخل البلاد وخارجها أيضاً، معظم هذه اللوحات كانت تُباع وما يتبقى منها كانوا يرجعونه إلى الفيلا، وينفحون أبى بقشيشاً سخياً فى ذلك اليوم، تقريباً كانوا يكسبون كثيراً من هذه المعارض، لكن هذا كان منذ زمن.. توقفوا الآن عن المجىء إلى الفيلا، حتى المرتب الذى يدفعونه لأبى لم يعد منتظماً، تقريباً حسب ما فهمت أنهم تقدموا فى العمر، وربما أن بعضهم قد مات، كانوا عواجيز وكبار فى السن عندما كنت أراهم.

***

تحول حينا من حى خامل يبعث على الضجر من شدة سكونه إلى حى عامر بالحركة والحيوية، بيوت جديدة تُبنى فى كل مكان حتى قبل أن تشق الشوارع وتُرصف، الفيلات القديمة تُهدم وتُزال حدائقها وتُقام على مساحة أرضها ثلاث أو أربع عمارات،

القصور تختفى بأسوارها ومبانيها وأشجارها لتُبنى مكانها ست أو سبع عمارات!

فى تلك الأيام كان الحى يتوسع بسرعة من الداخل ومن الخارج أيضاً فى جميع الجهات حتى ملأ الخلاء المحيط به، كل عام تنضم مساحة من الغيطان إلى العمار ويُبنى عليها بيوت ومساكن وتُشق فيها شوارع ضيقة وطرق ترابية كشقوق الثعابين، وتنتشر بينها محلات تبيع كل أنواع البضائع، ومقاهٍ وورش حدادة ونجارة وتصليح السيارات بكافة أنواعها تملأ الدنيا صخباً وضجيجاً لا يتوقف، وأصبح المارة فى الشوارع التى بها محلات الملابس والأجهزة الكهربائية يتكدسون على الأرصفة أمام الوجهات الزجاجية من بدء الغروب حتى نهاية الليل.

الونس بالناس والصحبة الحلوة والسهر على المقاهى حتى الصباح، والبشر فى كل مكان تضحك وتزعق وتتكلم، بيع وشراء ومصالح بين الخلق لا تنتهى، الشوارع والحوارى منورة طوال الليل والدنيا عمار!

لم نعد نسمع عن العفاريت ولم تعد حكاياتهم تُروى للصغار، ولم يعد هناك من يخاف أصلاً، لا من العفاريت ولا من غيرها!

5

سار المهندس كمال برفقة الدكاترة الثلاثة بين بساتين الفاكهة فى المنطقة الأولى من المزرعة، وسار من خلفهم بمسافة أحد العمال وهو يدفع أمامه عربة صغيرة بثلاث عجلات، من النظرة الأولى أدرك الدكتور ممدوح بخبرته أن الأشجار العتيقة لهذه المنطقة لا تلقى العناية الواجبة وأن هناك شيئاً من الإهمال فى التعامل معها، بدت هذه البساتين كأنها توشك على الانقراض وتقترب من نهاية عمرها، دون أن يبدو فى الأفق أى خطط معدة للإبقاء عليها وتجديدها.

برغم أن أصناف الفاكهة التى تنتجها تعد من الأصناف الأصيلة الفاخرة، التى يجب المحافظة عليها ومنعها من الاندثار، لتبقى فى مواجهة طغيان الأصناف الحديثة المهجنة المستوردة من الخارج، أصناف تتميز بإنتاجيتها العالية وبجمال الشكل ولون القشرة الخارجية، لكن بطعم ماسخ وغير طبيعى يصلح لصناعة العصير بأكثر مما يصلح للأكل.

المنطقة فى حدود الخمسين فداناً مقسمة إلى بساتين فاكهة معظمها يعود إلى زمن الأميرة، ومحصولها يُباع بمزاد سنوى إلى تجار الفاكهة، الذين يقومون ببيع هذه الأصناف النادرة ذات المذاق

الطبيعى إلى الخاصة من الأثرياء وصفوة المجتمع وبأسعار باهظة، ليستمتعوا دون غيرهم من عامة الناس بأكلها وتقديمها على موائدهم.

توقفوا عن السير بالقرب من قطعة أرض قريبة من سور القصر، تبلغ مساحتها ما يقرب من الخمسة فدادين، قال المهندس كمال وهو يُشير إليها.

– أول عمل لنا اليوم، معاينة بستان الفاكهة هذا.. طبعاً القرار لكم كلجنة فحص، فيما يتعلق بالإبقاء عليه ومعالجته.. أو إزالته؟!

قبل أن يشرعوا فى تجاوز قناة الرى التى تمر بمحازة البستان، كان واضحاً أمامهم من طريقة تخطيط الأرض والعلامات الموجودة على حدودها أن هذا البستان قديم، ويرجع إلى فترة تاريخية بعيدة، كما بدا واضحاً أنه لم يعد مثمراً! وأن الإصابات الحشرية والفطرية قد أنهكت الشجر وقضت عليه تقريباً، وحولته إلى هياكل خشبية جافة تنمو عليها أوراق متهدلة باهتة الخضرة؟!

قال المهندس كمال وهم يبدأون جولتهم لفحص الأشجار، والأوراق الجافة المتساقطة بكثافة على أرض البستان تخشخش تحت حذائه الرياضى الفاخر.

– هذا أقدم بستان فاكهة فى الزراعات الخاصة بالقصر، حتى سنوات قريبة كان يعطى إنتاجية عالية، هذه الأشجار كانت

تتغطى بالثمار فى موسم الحصـــاد، لكنهـــا تـــدهورت بســـبب الشيخوخة.

قال الدكتور ممدوح وهو منهمك فى فحص إحدى الأشجار.

– ليست الشيخوخة فقط، لكن كثرة الإصابات أيضاً، هذه الأشجار كان يمكن لها أن تعيش سنوات أخـــرى، لكـــن عـــدم مكافحـــة الأمراض الفطرية والحشرات التـــى تهـــاجم الأوراق والأفـــرع والشماريخ الزهرية ساعد على وصولها لهذه الحالة – لم يستخدم الدكتور كلمة الإهمال متعمداً حتى لا يسبب الإحراج لكمـــال – لكن طريقة كلامه وتعبيرات وجهه أشارت إلى ذلك بوضوح لـــم يخف عليه.

لولا الروتين والإجراءات الحكومية المعقدة لما كان هناك حاجـــة لوجودكم هنا اليوم، لابد من عقد لجنة من الخبراء تعاين وتفحص وتكتب تقريراً بالتوصيات، ثم مراجعة تلك التوصيات من الجهات المختصة، وبعد ذلك الكثير من الإمضاءات وختم الأوراق بشعار الدولة، حتى نتمكن من تنفيذ عمل تافه كهذا؟!

خمسة فدادين تُنتج عدة أطنان فى السنة لمحصول فاكهـــة هـــو منتشر بالفعل والسوق المحلى متخم به، هذه الأطنان لو نقصـــت لن تؤثر فى إنتاجية المحصول العامة على مستوى الدولة، ولـــن يتأثر بها السوق أو الاقتصاد بمعنى أدق، هذا البستان يقـــع فـــى منطقة متميزة من زراعات القصر ونحن بحاجة إليه أو بحاجـــة

إلى أرضه لنضيف بعض المنشآت والمبانى إلى ملحقات القصر، سوف يقام طريق مرصوف، طريق صغير بالطبع يكفى لمرور سيارة واحدة، يصل من هنا إلى هناك مباشرة، هذه المنشآت ضرورية للجهاز وقد صدر بها الأمر فعلاً، لكن لابد من موافقة الوزارة المعنية التى تعد هذه الزراعات تابعة لها؟!

استغرق الدكاترة الثلاثة فى نقاش طويل وهم يتجولون فى أنحاء البستان، يقلبون أوراق الشجر ويفحصون أغصانها وينحنون قرب الأرض ليروا جذوعها الخشبية التى تضخمت بفعل السنين وتحولت إلى أوتاد هائلة الحجم راسخة فى الأرض، بينما المهندس كمال يتبعهم على بعد ولا يتدخل فى حديثهم وإن كان يلتقط كل كلمة فيه، ولاحظ أن الدكتور الثلاثينى الشاب لا يخلو من حدة فى انتقاد حالة البستان، وردد أكثر من مرة كلمة الإهمال فى حواره مع زميليه الأكبر سناً.

– هذه الأشجار من الصنف الممتاز التى تعطى محصولاً متميزاً.. ويمكن علاجها، لكنها تحتاج قبل أى شىء إلى الرى، فهى تعانى من العطش!

قال الدكتور ممدوح وهو ينظر إلى المهندس كمال، الذى أبدى تعجبه ورد بسرعة.

– الماء متوفر فى المزرعة، لكن للأسف الوضع عندنا سيىء بالنسبة للعمالة، العساكر المجندون هم الذين يقومون بالعمل، وهم

غير مدربون ولا يملكون خبرة فى العمل الزراعى، ومعظمهم لم يسبق له أن أمسك فأساً أو تعامل مع ماكينة رى قبل أن يأتى إلى هنا!

لم يبلع الدكتور ممدوح هذه الحجة واعتبرها من قبيل التسويف، لكن كمال سأله بجدية.

– لكن الرى ليس هو المشكلة الوحيدة طبعاً، أليس كذلك؟

– نعم بالطبع.. هذه الأرض تحتاج إلى سنتين من الرعاية، لتعود كما كانت وتعطى إنتاجيتها العالية، هناك برنامج للتسميد يجب تنفيذه وفق جدول محدد بالشهور على مدار السنة، نحتاج أسمدة عضوية وفسفورية ونيتروجينية وبوتاسية وكذلك إلى العناصر المعدنية كالحديد والنحاس والزنك والمنجنيز، مع بدء تنفيذ البرنامج ستبدأ الأشجار فى استعادة حيويتها تدريجياً، ستنمو أوراق جديدة وتنتعش الفروع والأغصان وتزهر من جديد..

استمع كمال بنفاد صبر وهو يهز رأسه موافقاً، ويحاول جاهداً ألا يبدو على تعبيرات وجهه ما يعانيه من ألم ضرسه وما شعر به من إحباط نتيجة لرأى اللجنة!

استأنف الدكتور ممدوح كلامه شارحاً بقية خطوات إنقاذ البستان من التدهور، ضاغطاً على كل كلمة ليؤكد أهمية ما يقوله، برغم ما داخل نفسه من شعور مؤكد بأن مدير الحدائق لا يولى أى اهتمام بما يسمعه!

– مع برنامج التسميد لابد أيضاً من رش الشجر بالمبيدات الحشرية والفطرية للقضاء على هذه الإصابات والأمراض التى تكاد تقضى على الشجر.

ليتها قضت عليه، كنا انتهينا من هذا الأمر! كنت أظن أن ذلك قد حدث بالفعل وأن حضوركم الآن تحصيل حاصل، لمجرد التوقيع على الأوراق وختمها من الوزارة حتى نبدأ فى الإزالة، سوف يقع عبء المواجهة على رأسى، أقف فى المنتصف بين جهتين حكوميتين وتقع على عاتقى مهمة التنسيق بينهما، سوف يتركوننا نخوض هذا النزاع لشهور قد تطول أو تقصر حتى نستنفد قوانا، وفى النهاية عندما يحتدم الصراع ويصل إلى نقطة الصدام سوف يصدر أمر سيادى، غالباً بعد مكالمة تليفونية بين الوزيرين المختصين لن تستغرق سوى عدة دقائق، ليحدد لنا نحن صغار الموظفين ما يجب علينا عمله! ساعتها أياً كان الأمر سنبدأ فى التنفيذ، نستدعى المقاولين بمعداتهم وعمالهم ولوادرهم وبلدوزراتهم ولورياتهم ليزيلوا أشجار البستان ويمهدوا أرضه للبناء.. أم نُحضر الأسمدة والمبيدات ومواتير الرش ونبدأ فى تنفيذ برنامج رعاية الأشجار حتى يستعيد البستان عافيته ويُنتج ثماره من جديد؟!

تذكر كمال موعده فى المساء مع طبيب الأسنان بشىء من الراحة، يتوق إلى تلك الجلسة الصعبة على كرسى العلاج لما

يعانيه من نوبات الألم، التى تأتى كموجات متتابعة ترتفع شيئاً فشيئاً لتبلغ ذروتها ثم تنحسر تدريجياً لفترة يسترد فيها هدوءه وترتاح أعصابه، ثم لا تلبث أن تعاود الهجوم.

– حاضر يا دكتور.. طبعاً سيادتك ستكتب لنا هذه التوصيات فى تقرير، ثم نبدأ فى اتخاذ اللازم من إجراءات بعد ذلك.

أهملتم الأشجار وتركتم البستان، دوناً عن بقية المزرعة، بلا رعاية عن عمد، لابد أن لكم غرضاً ما فى تبوير هذه المساحة من الأرض لاستغلالها، لكن على كل حال لن يكون هذا عن طريقى، الكبار كانوا يستطيعون فعل هذا بسهولة، واتخاذ القرار فيما بينهم بدلاً من محاولة خداعنا بهذه الأساليب المكشوفة، يبدو أنهم برغم كل شىء يخجلون من أنفسهم ومن أفعالهم الرخيصة تلك، فيسندون القرار إلى رجل مثلى، لكنى لن أسهل لهم هذا الأمر.. يا ترى ماذا كان الدكتور عادل أبو خطوة سيفعل لو حضر معنا هذه الزيارة؟!!

– لابد أن تهتموا بهذا البستان، خسارة أن تضيع هذه الأشجار فهى من صنف ممتاز وسلالة أصيلة لم تعد منتشرة هذه الأيام وتكاد تقترب من الانقراض.

– سنفعل ما بوسعنا يا دكتور.. اطمئن.

كتم الدكتور فى نفسه الضيق الذى شعر به وهذا المهندس يـرد عليه من تحت الضرس، ويبدو هذا الامتعاض بلا مواربـة ولا حياء على وجهه وهو يكلمه؟!

كيف كان الناس يعيشون فى القرون السابقة قبل وجـود طـب الأسنان؟ كيف كانوا يتحملون هذا الألم دون وجود علاج فعـال، عندما يبدأ الضرس فى الوجع فإنه يحول حياة صاحبة إلى عذاب مستمر، يتوغل فى اللحم ليلهب العصب فيشتعل كالنار الحارقـة التى تُطيش بصواب الإنسان، هؤلاء الذين عاشوا فى الأزمـان الماضية كيف كان الواحد منهم يتصرف فى مثل هذا الموقـف؟ ماذا كان الطب البدائى وقتها يقدم لهـم بـدون أدوات الجراحـة الحديثة الدقيقة الصنع؟ وبدون كرسى الطبيب المريح بكل ما عليه من أجهزة علمية معقدة، كم يـود الآن أن يسـتلقى علـى هـذا الكرسى ويفتح فمه عن آخره، ليشرع الطبيب فى التعامل مع هذا الضرس القاتل الذى يهاجمه بضراوة وينغص عليه حياته..

فيما مضى كان الحلاق يتولى علاج الأسنان والضروس كجـزء من مهنته وكذلك إجراء الجراحات الصغيرة وتطبيـب الـدمامل والخراريج فى أنحاء الجسم وفصد الـدم الفاسـد!! والطريقـة الوحيدة للتعامل مع الضروس والأسنان المصابة هـى الخلـع، التخلص تماماً من المشكلة بالقضاء على سببها وإزالة وجـوده، كيف كانوا يفعلون ذلك بدون بنج؟ إلى أى مدى كان الألم يصـل

بالإنسان فى تلك اللحظات؟ والضرس ينتزع وجذوره الراسخة فى لحم الفك تغادر مكمنها العميق تحت وطأة الشد بآلة حديدية بدائية قد يكون الصدأ يغطيها، البنج.. هذا المخدر الذى نتعامل معه الآن على أنه من طبيعة الأشياء، كان فى ذلك الزمن حلماً مستحيلاً وترفاً لا يستطيعه حتى الملوك، الألم كان حتمياً.

***

غفا رزق بينما كان يجلس فى السيارة، مثل معظم السائقين يستغل هذه الفترات التى يقضيها منتظراً فى النوم، نوم متقطع يشبة العوم فى بحر عالى الأمواج يغطس فيه ويطفو، لكنه يخرج منه وقد جدد نشاطه بعض الشىء.

نزل من السيارة وفرد جسمه متثائباً، ثم أخرج علبة السجائر من جيب القميص وهم بإشعال سيجارة، فجأة انفتحت نافذة من نوافذ الطابق الثانى فى القصر، انفتحت بقوة جعلت ضلفتى الشيش يصطدمان بجدار الواجهة، اصطدام خفيف خافت الصوت، لكنه جعل رزق لا يُكمل إشعال السيجارة ويرفع بصره تلقائياً ناحيته مستطلعاً، وقف مبهوتاً لا يصدق عينيه وهو يرى امرأة شابة رائعة الجمال فى ثوب أبيض عارى الذراعين تُطل من النافذة، لم ير فى حياته مثيلاً لهذه البشرة الناصعة البياض، ولا لهذا الشعر الطويل المنسدل على كتفيها كشلالات من الذهب، كانت تضوى بجمالها وهى تُعدل من وقفتها وتنحنى قليلاً لتستند بكوعيها على

حافة النافذة، وترفع رأسها لتتطلع إلى نهاية الأفق البعيد، دون أن تلحظ ودون أن يبدو عليها أدنى إحساس، على عكس طبيعة النساء، بوجود الرجل الذى يقف مشدوهاً أسفل نافذتها، يحدق فى ذراعيها البضتين وشعرها ووجهها ويرى بوضوح، برغم المسافة التى تفصله عنها، زرقة عينيها الفيروزية.

كانت تقف فى نافذتها بوجودها الطاغى وسط هذا السكون، كأنها بمفردها فى العالم، تتطلع إلى المجهول البعيد، لم يعرف رزق كم مر من الوقت، دقيقة، دقيقتان، خمس دقائق أو عشر، لكنها اختفت فجأة وتركته هائماً، مرتبكاً، والسيجارة المطفأة بين أصبعيه، أشعلها وجذب أنفاسها بنهم، وهو واقف فى مكانه كالتمثال.

لم يكن يريد أن يتحرك من مكانه بجوار السيارة خوفاً من عواقب التجول فى مكان كهذا، لكن رغماً عنه دفعته الرغبة فى قضاء الحاجة إلى مغادرة مكانه بحثاً عن حمام، أخذ معه كوب الشاى الفارغ وسار فى نفس الاتجاه الذى أتى منه بدر، ومشى من الجهة الخلفية للقصر حيث يقع المكان المخصص لانتظار السيارات إلى الواجهة.

ثلاثة من الجناينية المسنين يعملون فى الحديقة الشاسعة الممتدة أمام القصر، اثنان منهم يمسكان بمقصات التقليم ويشذبان شجيرات الورد ببطء وعناية، والثالث يقص النجيل بماكينة

يدوية، بعد أن اقترب من واجهة القصر وهو يمشى متطلعاً حوله بحذر سمع صوتاً يناديه، نظر ناحية الصوت فوجد بدراً يشير إليه.

– ماذا تريد يا اسطى؟

زعق عليه بدر من مكانه، فاتجه إلى غرفة المكتب التى يجلس بدر بجانب بابها.

– لا مؤاخذة، أريد أن أدخل الحمام.

– تعال.

مشى به بدر ماراً على حجرة البوفيه الصغيرة التى يصنع فيها المشروبات، استرق رزق النظر إلى داخل الحجرة المفتوحة الباب، ثلاجة حديثة ذات واجهة زجاجية، ممتلئة عن آخرها بأصناف متعددة من زجاجات المياه الغازية، براد كبير الحجم يوجد على الموقد خافت النار يتصاعد بخار خفيف من فوهته الضيقة، بجوار الحوض تمتد طاولة رخامية عليها أكواب مغسولة مختلفة الأحجام، أشار بدر إلى باب مغلق ملاصق للبوفيه.

– ادخل هنا.

الحمام صغير وفى غاية النظافة والفخامة إلى الحد الذى جعل رزق – المعتاد على الحمامات التى ينشع الماء على جدرانها ويسيل من مواسيرها وينقط من صنابيرها ويغطى أرضياتها – يرتبك ويحتبس بوله بعض الشىء.

حرص على أن يغلق باب الحمام بعد خروجه، وعندما مر ببدر حياه.

- شكراً يا ريس.

- العفو أى خدمة.

كاد ينصرف راجعاً إلى موقف السيارات، لكنه توقف بعد أن تجاوز بدر بخطوتين، استدار وسأله.

- هل هناك أحد يسكن فى القصر؟

رفع بدر رأسه كأنما لسعه عقرب، وحدق فيه لثوان قبل أن يسأل بدوره.

- لماذا؟ هل شاهدت شيئاً؟

- أبداً.. لكن الحقيقة فيه شباك انفتح وأنا واقف..

قاطعه بدر قائلاً باهتمام.

- فى أى دور؟

- الثانى.. الدور الثانى.

أجاب رزق وقد داخله قلق غامض من تغير بدر واهتمامه غير المتوقع، لكن دهشته زادت عندما قال.

- طيب تعال، اجلس هنا على هذا الكرسى!

أشار بدر إلى كرسى قريب من الكرسى الذى يجلس عليه.

جلس رزق مستغرباً، وقد شعر بحاسته التى تكونت عبر سنوات طويلة من الجرى فى الشوارع وعراك الحياة ومُشاكسته لخلق

الله ومشاكستهم له، أنه قد تسرع فى الكلام، وأوقع نفسه بشكل أو بآخر فى مصيبة أو على الأقل يوشك على الوقوع فيها، لذلك أخذ قراراً حاسماً بالإنكار، لن يتكلم بكلمة واحدة عن المرأة التى رآها، لكنه فوجئ ببدر يقول له، وهو ينهض عن كرسيه.

– سوف أعمل لنا كوبين شاى!

– لا داعى للتعب، شكراً.

لكن بدراً أشار بيده، لا تعب ولا حاجة، ومضى إلى حجرة البوفيه بالخطوة السريعة، وعاد بكوبى الشاى.

ازداد انزعاج رزق وبدر يسأله عن الشباك ويلح عليه مستوضحاً عما رآه بينما يشربان الشاى ويدخنان، أصر على أنه لم ير سوى الشباك وهو يُفتح فجأة، لا أكثر.

– يعنى الشباك انفتح لوحده؟!

قال بدر بنفاد صبر، وهو ينظر متشككاً إلى رزق.

– طبعاً لأ، لكن أنا لم أر من فتحه، هذا كل ما فى الأمر.

– طيب براحتك، كما تريد!

– لماذا لا تصدقنى يا ريس، ما الموضوع بالضبط؟

– الموضوع أنه... لا يوجد أحد فى القصر الآن! ولا يمكن لأحد أصلاً أن يدخل القصر كائناً من كان!!

– يعنى إيه؟

قال رزق وقد أصابه الفزع.

– أسأل نفسك.. يمكن كنت شارب ولا متعاطى حاجة؟

– أبداً.. علىّ الطلاق ما حصل! لكن.. معنى كلامك أن القصر مهجور ولا أحد يعيش فيه؟

– أنا لم أقل هذا.

رد بدر بغموض وسكت، لكن "رزق" الذى بدأ الفزع يتسلل إلى قلبه، قال مأخوذاً.

– لكن الشباك الذى انفتح أمامى..

– الله أعلم.. يمكن الهواء فتحه، على كل حال إحنا ساعات نسمع عن حاجات بتحصل كده.

– حاجات إيه ولا مؤاخذة؟

– مجرد كلام فاضى، لا تشغل بالك.

قال بدر جملته الأخيرة وقام عن كرسيه متجهاً إلى البوفيه، دون أن يلتفت إلى رزق الذى ظل جالساً فى مكانه لا يكاد يقوى على النهوض، يأتيه صوت الموظفين الخافت وهم يتكلمون فى المكاتب المجاورة، وخبطات المقصات وهى تقطع الأغصان الرفيعة، وصرير عجلات آلة جز الحشائش وهى تمشى فوق أرض الحديقة.

6

جلس صالح بسيونى يُتاجر ويبيع ويشترى فى كشك السجائر الذى بناه على الرصيف أمام سور الفيلا، دخل حياة مهنية مغايرة لما تعود عليه خلال سنوات طويلة، قضاها كغفير لا يكاد يفعل شيئاً سوى الجلوس على كرسى بجوار بوابة الحديقة الجرداء لحراسة الفيلا.

كان قد فكر بعد أن ضاق به الحال وانقطع راتبه الشهرى فى عمل يتعيش منه، وهداه تفكيره إلى إقامة الكشك، بحيث يستمر فى حراسة الفيلا، أو بمعنى أكثر دقة يستمر فى العيش بها واتخاذها سكناً، ويجد مجالاً للرزق فى نفس الوقت، لم يعد بمقدوره العودة للحياة فى قريته، لن يجد هناك عملاً أو بيتاً يسكنه هو وأبناؤه وبناته التسعة.

أولاده نشئوا جميعهم فى المدينة ومازال صغارهم يتعلمون فى مدارسها، والذين كبروا من الصبيان وتركوا التعليم يعملون فى الورش التى تملأ الحى، تطبعوا بطباع المدينة وسكانها، ولم يعد بإمكانهم الحياة فى الريف ولا التأقلم مع عاداته وتقاليده وطباع أهله.

بعدت الصلة بينه وبين القرية، أرضها وحقولها وبيوتها، يزورها بين الحين والآخر، ربما مرة أو مرتين فى السنة، لكن صلته بأهله وعائلته لم تنقطع على طول السنين، الكثيرون من الأهل والأقارب والمعارف والجيران، يتوافدون عليه عندما يأتون للمدينة لأسباب شتى لا حصر لها، وفى زيارات متواصلة لا تنتهى!

من خلال الكلام وقعدات الحكى عرف صالح أن أسرة وفيق الرسام اندثرت من القرية، نزحوا إلى العاصمة وإلى المدن الساحلية البعيدة الواقعة فى أقصى الشمال حيث يوجد البحر، بعد موت كبار الأسرة باع الأولاد الذين تعلموا فى جامعات المدينة أطيانهم وأملاكهم بما عليها من بيوت وحظائر وأجران ومخازن، واستقروا بجوار أعمالهم ووظائفهم فى المدن البعيدة ونسوا أصلهم، حتى إن أقاربهم ومعارفهم فى القرية لم يعودوا يعرفون عناوينهم ومحال إقامتهم، ولا يعرفون شيئاً عن الأبناء والأحفاد الذين نشئوا بعيداً عن القرية.

بانقطاع راتبه وكذلك صلاته مع ورثة وفيق الرسام الذى عاش عمراً طويلاً دون أن يتزوج أو ينجب أولاداً، أخذ صالح يتعامل مع الفيلا كأنها ميراثه هو واعتبر نفسه مالكها الحقيقى، فى صباح أحد الأيام كسر باب الفيلا واستدعى نجاراً قام بفك القفل العتيق، وركب مكانه قفلاً جديداً.

كانت الغرفة التى يقيم بها فى الحديقة قد ضاقت عليه وعلى أولاده الكثيرين، وبرغم أنه بنى غرفة أخرى بجوار الغرفة الأصلية ظل بيته صغيراً لا يكفى أسرته.

مشى صالح فى أرجاء الفيلا ومعه سلومة وبقية إخوته متوجساً، كان فى داخل نفسه لا يشعر بالارتياح لما أقدم عليه، ليس فقط لخيانته أمانة ظل لسنوات طالت كثيراً يحافظ عليها، ولا لأن هذه الأرض التى يطؤها الآن هو وأولاده كانت حرماً، عمله الوحيد أن يحرسه ويحافظ عليه، لكن لأنه رجل عاش عمره لا يحب المشاكل ولا التورط فيها، ظل قابعاً على كرسيه بجوار البوابة يحرس بيتاً بلا صاحب يأمره أو ينهاه أو يكلفه بشىء، لكنه الآن تحت ضغط الحاجة وضيق العيش يُقدم على خطوة لم يكن يظن أبداً أن يُقدم عليها، يخشى الحكومة والشرطة، يخشى أن يجد نفسه متهماً أو مقبوضاً عليه، لكنه فى نفس الوقت مطمئن أو يحاول أن يطمئن نفسه، فخلال هذه السنوات لم يقترب أحد من رجال الحكومة من الفيلا أو يهتم بأمرها، وسواء كان يقيم فى حجرة الحديقة أو بداخل الفيلا فإن الأمر لا يعنيهم، منذ فترة طويلة وهو يدفع فواتير الكهرباء والمياه الشهرية من جيبه معتمداً على دخله من الكشك، الذى أصبح مصدر رزقه الوحيد.

شدد صالح على أولاده بعدم الاقتراب من غرفة المرسم الواسعة التى تحوى لوحات وفيق ومقتنياته من تحف وتماثيل، كان يدرك

أنه جاء منذ البداية ليحرس هذه الأشياء بأكثر مما يحرس الفيلا نفسها، مازال يتذكر محاضر الجرد التى وقع عليها، حدث هذا منذ زمن بعيد، لكنه لم ينس أن كل ما فى هذه الحجرة عهدة لديه استلمها يوم جاء ليعمل غفيراً هنا، لا يعرف إن كانت هذه المحاضر موجودة الآن بعد مرور هذه السنوات، أم أنها ضاعت وأتلفها الزمن، لكنه فى جميع الأحوال لن يعرض نفسه للمساءلة والتحقيق لو تغيرت الأمور وجاء فى أحد الأيام من يهتم بهذه اللوحات ويسأل عنها، سواء من الورثة أو من غيرهم.

***

فى المناسبات والأعياد عادة ما كان وفيق بسيونى الرسام يزور قريته ويقضى بها عدة أيام، يتذكر صالح تلك الأيام من صباه، عدد من أبناء القرية الذين يقيمون فى العاصمة أو فى غيرها من المدن كانوا يأتون كذلك لزيارة أهلهم، لكن وفيقاً كان أكبرهم سناً وأكثرهم غرابة فى أعين الصغار، بشعره الفضى الطويل الذى يغطى قفاه وبلحيته الكبيرة، وملابسه الغريبة بعض الشىء المختلفة عما يرتديه غيره من الأفندية.

كان يخرج فى الصباح الباكر ليمشى وحيداً بين الحقول، يسير متمهلاً معتمداً على عصاه، ويتوقف فى كثير من الأحيان ليتأمل السواقى وهى تدور بالماشية، أو يقف لينظر إلى الأنفار وهم يعملون بالفؤوس من بعيد، وقد يتمشى ليجلس تحت شجرة تُطل

على الترعة، ويظل لفترة طويلة ساكناً فى مكانه ينظر إلى الماء الجارى أمامه، وإلى الأرض المنبسطة خلف الضفة الأخرى.

الحكايات التى كان صالح الطفل يسمعها تُروى عن هذا الرجل العجوز لم تكن مريحة، وجعلته هو وغيره من الصغار يخافون منه، الكبار فى هذا الجانب الفقير من عائلة بسيونى، كانوا يعيبون عليه فى أحاديثهم أنه عاش هذا العمر بلا زواج واعتبروها نقيصة فى حقه، كما أنهم يتهمونه أيضاً بالبخل والتعالى على الفقراء من أهله.

– ده عايش فى قصر، وعنده فلوس على قلبه زى التلال!

– طول عمره براوى، عايش لوحده لا زوجة ولا عيال!

– أنا سمعت إنه، أستغفر الله العظيم، يعاشر النسوان فى الحرام ويشرب الخمرة كمان!

– يا جماعة عيب، هو من أهلنا برضة.

– يعنى كنا شفنا منه حاجة! ده زى القرع يمد لبره وينسى أهله.

فى فترة مبكرة من حياته، ربما وهو فى بداية الثلاثينيات من عمره، باع وفيق ميراثه من فدادين الأرض إلى بنى عمومته، وبنى فيلته فى ريف العاصمة بالمال الذى حصل عليه من ثمنها، أخوه الوحيد كان قد سبقه للدراسة فى الجامعة ثم لم يلبث أن توظف فى مدينة ساحلية واستقر بها، وباع هو أيضاً نصيبه من الفدادين التى آلت إليه بالوراثة إلى أقاربه من عائلة بسيونى، لكن

شقيقاتهما الثلاث اللاتى تزوجن فى القرية وعشن بها احتفظن بميراثهن من الأرض ولم يفرطن فيه.

كان صالح يسمع من الشبان المتعلمين فى القرية أن وفيقاً فنان معروف، وأنه من كبار الرسامين، كان هؤلاء الشبان يتابعون أعماله فى المجلات المختلفة ويقرؤون ما يُكتب عنه فى الصحف، كانوا يحتفون بوجوده فى القرية عندما يأتى لزيارتها ويفتخرون بانتمائه لها، وأحياناً كانوا يشاركونه جلسته المفضلة عند شاطئ الترعة، يتناقشون معه ويستمعون إليه وهو يحدثهم عن الفن والحياة وإقامته فى العاصمة ورحلاته إلى أوروبا، بعض هؤلاء الشبان كان يكتب الشعر أو له محاولات فى كتابة القصة والرواية، وينظر إلى وفيق كمثل أعلى يتطلع أو يتمنى أن يحذو حذوه ويحقق ما حققه من نجاح فى عالم الفن.

لم يكن وفيق يبخل عليهم بالنصيحة وقدم لهم ما يستطيعه من مساعدة، كان يستقبلهم فى المجلة التى يعمل بها، بعد أن يعطيهم العنوان بالتفصيل ويشرح لهم كيف يصلون إليها عبر متاهات شوارع العاصمة المزدحمة وميادينها الكثيرة، يقدم الشاب منهم إلى محررى الصفحة الأدبية ويوصى عليه، ثم يتركه بعد ذلك ليثبت موهبته بنفسه لو كان يمتلك منها ما هو جدير بالاهتمام.

فى الفن والأدب لا يستطيع أحد مساعدتك سوى موهبتك وقدراتك الإبداعية، هما الوساطة الوحيدة لأى فنان أو أديب، كان يقول هذا

الكلام مؤكداً عليه بإشارات يده للشاب الريفى الخجول الجالس فى مكتبه يحتسى الشاى وهو يمسك أوراقه بعناية، وحرص مبالغ فيه كان فى بعض الأحيان يكاد يجعل وفيقاً يضحك.

خلال سنوات حياته سواء فى معهد الفنون حيث يُدرس الفن للطلاب، أو فى عمله بالصحافة، قابل الكثيرين، أعداد لا حصر لها من الشبان والشابات أيضاً، الذين يعتقدون أنهم يمتلكون الموهبة، فى الرسم أو الشعر أو الأدب أو الصحافة وحتى فى الغناء والتمثيل، لكن القليلين منهم فقط كانوا يمتلكون موهبة حقيقية، موهبة تستحق أن تُقدر ويحتفى بها، لأن صاحبها سوف يكون له شأن فى يوم ما، هؤلاء القليل أصبح لوفيق مع طول الخبرة القدرة على معرفتهم من اللحظة الأولى، يستطيع أن يرى بريق الموهبة وهو يشع من عيونهم ويجده فى كلامهم وهم يتحدثون وحتى فى حركتهم أو صمتهم وهم يستمعون إلى غيرهم وهو يتكلم، برغم الطبائع المختلفة والتى قد تكون متناقضة فى شخصياتهم، من الميل للهدوء والطبيعة المسالمة إلى العصبية الشديدة والانفعال الدائم، الانطوائية وحب العزلة والميل للزهد إلى المرح والصخب والإقبال المبالغ فيه على مباهج الحياة، المزاج المعتدل والمتزن تماماً إلى المزاج الحاد الذى يميل للعنف وتعاطى المخدرات والمكيفات، التهذيب ورهافة الحس فى التعامل مع الآخرين إلى الغلظة والغرور والتعالى!!

يدرك وفيق أن الإنسان يذهب فى نهاية الأمر، لكن الإبداع يبقى، صارع طوال حياته ليصنع لنفسه مكانة فى فن الرسم، هذا العالم الفسيح الذى يضم آلاف الفنانين لا يعرف الناس منهم إلا بضعة عشرات معظمهم ممن عاشوا قبل القرن العشرين.

وهو فى مطلع الشباب كان الأمل يحدوه أن يصبح رساماً عالمياً، تُباع لوحاته فى المعارض الكبرى، سافر وعاش فى أوروبا وتعرف على رساميها وفنانيها وصادق الكثيرين منهم، اجتهد وبذل كل ما فى وسعه ليتعلم ويصقل موهبته الفطرية فى الرسم، تلك التى اكتشفها وهو مازال فى المدرسة الابتدائية، عندما كان يُذهل مدرسيه بقدرته على الرسم والتلوين، لاقى منهم التشجيع، وكانوا يعلقون لوحاته المرسومة بألوان الشمع على الجدار المواجه لحجرة الناظر فى صالة مدخل المدرسة، واحتفى به مدرس الرسم وكثيراً ما كان يجلس معه يوجهه ويعلمه أسرار الألوان والخطوط، وكيفيه سريانها على الورقة البيضاء حتى تصنع تكويناً جمالياً يجعل من الصفحة لوحة فنية، حتى ولو كانت بالأبيض والأسود.

قبل أن يبلغ الثلاثين كان قد استقر على منهج محدد واستطاع أن يصنع أسلوبه الخاص، استخلص لنفسه طريقاً بين مدارس الرسم العديدة يميل إلى التأثيرية، لكنه ليس تأثيرياً خالصاً وظل طوال

سنوات عمره يطور تقنياته ويكتسب مزيداً من الخبرة والنضج عبر عشرات بل مئات اللوحات.. لكن؟!!

لم يتحقق من الطموح إلا القليل، حقق نجاحاً ملموساً على المستوى المحلى، المعارض السنوية التى يقيمها تشهد حضوراً من هواة الفن والأدباء والصحفيين وجمهور المثقفين بالإضافة إلى الرسامين والنحاتين.

لا يهتم باللوحات الفنية ومعارضها إلا النخبة فقط، الفنانون والكتاب والمثقفون عموماً يحضرون للمشاهدة وبدافع حب الفن ولا يشترون اللوحات إلا فى حالات نادرة، أما المشترون فهم أبناء الطبقة الثرية سواء ممن لهم أصول عريقة، هؤلاء الذين نشئوا على احترام الفن وتقديره ولديهم القدرة بحكم ثقافتهم على تقييم الثمين ومعرفة الغث وتجاهله، أو من الأثرياء الجدد الذين يريدون أن يكملوا وجاهتهم الاجتماعية باقتناء اللوحات الأصلية للرسامين المعروفين.

برغم هذا النجاح الذى جعل وفيقاً فى صدارة المشهد الثقافى والفنى، لكن شعوره بأنه لم يستطع أن يتجاوز النخبة ويصل إلى الجمهور العريض بفنه، وأنه معروف فقط لدى شريحة صغيرة من المجتمع، وكذلك لأنه لم يتجاوز حدود الوطن بالقدر الذى يرضيه، جعله وهو فى السبعين من عمره يحس بحالة من الإحباط واللاجدوى.

بعض زملائه فى أوروبا حققوا ثروات من مبيعات لوحاتهم، وبرغم اهتمام مجتمعاتهم وبلادهم بالفن وتسليط الضوء على الأعمال الإبداعية فى أى مجال فنى أو أدبى، لكن ظل النجاح على المستوى المحلى الضيق.. بالمفهوم الأوروبى طبعاً.

نحن فنانون نتعارك مع الطبيعة والعالم طوال الوقت، ونقدم هذا العالم من وجهة نظرنا وحسب رؤيتنا الإنسانية للطبيعة، أما ما يحدث بعد ذلك فلا دخل لنا به، العمل الفنى يصنع وجوده الخاص بين الناس، يستقبلونه ويتعاملون معه كما يريدون هم لا كما يريد صاحبه، كل فنان يتمنى أن يقدم العمل الأفضل والأشهر لكنه فى حقيقة الأمر، يبدع ما يستطيعه وفق قدراته وموهبته وليس ما يريده أو يتمناه..

المناقشات لا تنتهى بين وفيق وأصدقائه أثناء سفرياته إلى أوروبا، حول مفهوم الفن والشهرة ومعنى النجاح الذى يحققه الفنان ومداه، وما هو معيار النجاح للعمل الفنى؟ ويدور بينهم جدل طويل حول الفن الذى يحقق مكاسب مالية كبيرة دون أن يُخل بالقيم الإبداعية ودون أن يهبط إلى مستوى العمل التجارى..

هؤلاء الأصدقاء الذين عرفهم منذ زمن الشباب، يختلفون تماماً برغم الصداقة فى أساليبهم وانتماءاتهم الفنية، يتبعون مدارس متباينة فى رسمهم للوحاتهم ونحتهم لمجسماتهم وتماثيلهم، وحتى مع اختلاف مستوى الموهبة لدى كل واحد منهم، لكنهم جميعاً لا

يعملون سوى بالفن، ليس لديهم مهن أخرى يتعيشون منهـا، أو يضطرون للعمل بها بجانب عملهم كفنانين.

لا يستطيع وفيق أن يمنع نفسه من الحسرة وهو يجلـس معهـم ويرى حياتهم التى لا تخضع لضغط الحاجة والسعى مـن أجـل لقمة العيش، منهم من اشترى بيتاً فى حى راق بـثمن أربـع أو خمس لوحات.. فقط! بالنسبة له يعتبر ما يتحصل عليه من بيـع لوحاته مجرد دخل إضافى لا أكثر، بأى حال من الأحوال لا يقدر على العيش من عمله كرسام، برغم أن لوحاتـه تُبـاع بأثمـان مرتفعة بالنسبة لمستوى الحياة والأسعار فى بلده.. الفقير! كما أنه لا يبيع سوى عدد محدود من اللوحات خلال العام، لا غنى لـه عن الوظيفة والعمل فى التدريس وفى الصحافة معاً حتى يستطيع أن يعيش حياة كريمة، مجرد حياة كريمة وليست ثرية بأى حال!

***

يتذكر صالح هذا اليوم الذى جاء فيه التليفزيون إلـى القريـة، كحدث استثنائى فى تاريخها، ظلوا طوال اليوم، منـذ الصـباح المبكر وحتى الغروب، المذيعة المشهورة والمصـورون وعـدد كبير من الرجال، جاءوا فى قافلة من السيارات ومعهـم عربـة التليفزيون الكبيرة، التى أخرجوا منها كاميرات وأسلاكاً ومعدات كثيرة واستغرقوا وقتاً طويلاً فى تجهيزها ونصبها على الأرض فى مكان التصوير، بينما المذيعة تجلس بصحبة وفيق فى الشرفة

الواسعة للبيت الكبير لعائلة بسيونى انتظاراً لبدء التسجيل، وبيدها أوراق تنظر فيها وترفع عينيها بين الحين والآخر لتتكلم معه، بينما القرية تقف عن بكرة أبيها برجالها ونسائها وشبانها وأطفالها، على مسافة عدة أمتار خلف الكاميرات ومعدات التصوير، حسب أوامر المخرج الذى لم يكن يكف عن الحركة والتنقل بين الكاميرات الضخمة وإصدار تعليماته لمساعديه، وأهل القرية مشدوهون فى أماكنهم وأنظارهم تتركز على المذيعة وترصد كل حركاتها وسكناتها بانبهار.

فى هذا الوقت زمن الأبيض والأسود، كان فى القرية عدد محدود من أجهزة التليفزيون، يتابع الأهالى عليها فى المساء المسلسل الوحيد وأفلام السهرة التى تُعرض مرتين أو ثلاثة فى الأسبوع وبضعة برامج أخرى، من ضمنها البرنامج الأسبوعى لهذه المذيعة، تستضيف فيه المشاهير ونجوم المجتمع من الفنانين والرياضيين والكُتاب والسياسيين.

عند منتصف النهار انتقل التصوير بالكاميرات والمعدات وعربة التليفزيون والمذيعة والمخرج ومساعدوهم وخلفهم القرية كلها إلى الترعة، حيث المكان الذى اعتاد وفيق الجلوس عنده هناك، فرشوا المكان تحت الشجرة بالحصر وجاءت من البيت الكبير شلت ووسائد وضعت فوق الأرض، لكن المذيعة الجميلة التى كانت ترتدى جونلة قصيرة وفق موضة ذلك الزمن لم تستطع

الجلوس عليها، فرفعوا الحصير والشلت وجاءوا بكرسيين خشبيين وضعوهما تحت الشجرة، وبعد أن جلست المذيعة واطمأنت إلى وضع جونلتها وشدتها بحرص لتغطى ركبتيها، جلس وفيق على الكرسى الآخر واستأنفوا التصوير.

لم يكن وفيق فى القرية عند إذاعة الحلقة فى التليفزيون، لكن الناس تجمعوا ليلتها وهم فى غاية الفرح لظهور قريتهم على الشاشة، وكانوا قد أخذوا يتعاملون مع وفيق بعد تسجيل الحلقة باحترام كبير ممتزج بالرهبة، فالشخصيات الكبيرة التى تمتلك السلطة ولها نفوذ فى البلد هى فقط التى تظهر فى التليفزيون!

– وفيق بيه يقدر يرفع سماعة التليفون، ويكلم أى وزير فى البلد؟!

– أيوه طبعاً، راجل واصل وله مكانته.

– حاجة تشرف، يا سلام.. شوف لما التليفزيون بحاله يجى لحد هنا مخصوص علشانه.

– آه والله..

***

تزوج صالح وهو فى العشرين من عمره، واستمر يعمل كأجير فى أرض ابن عم وفيق، لا يغادر حدود قريته إلا نادراً، ويميل إلى الاستكانة الأقرب إلى برود الطبع، يقوم بعمله بلا تذمر ولا شكوى، ولم يتسبب فى مشكلة يوما ما، كما أنه كفلاح كان يعمل

بمجهوده البدنى لا العقلى، يربط الحمار مكان ما يريد صـــاحب الحمار بلا مناقشة ولا جدال.

عجز عن الرد وظل لعدة دقائق متحير فى الإجابة، عندما أخبره صاحب الأرض عن رغبته أن يعمل غفيراً لفيلا وفيق.

كان خبر موت وفيق الرسام قد وصل القرية منذ بضعة أشـــهر، ولم يهتم به صالح من قريب أو بعيد، فموته أو حياته لا تعنيه فى شىء.

– هل تعرف القراءة والكتابة؟

– نعم يا سعادة البيه، تعلمت حتى الشهادة الابتدائية، لكنـــى لـــم أحصل عليها!

– عظيم.. المهم أن تقرأ وتكتب، هذا ضـــرورى للعمـــل الـــذى أريدك من أجله.

obeikandl.com

7

سار المهندس كمال برفقة أعضاء اللجنة فى الأرض الزراعية التابعة للقصر، أو فى بقايا العزبة القديمة، طرق ممهدة تفصل بين المساحات المزروعة، على جانبيها الحقول مقسمة إلى قطع مختلفة الأحجام حسب نوع المحصول.

هناك لجنة دورية من ثلاثة أعضاء، كل منهم يحمل درجة الدكتوراه، تتابع سير العمل وتقدم التوصيات اللازمة لتحسين جودة المحاصيل ووقايتها من الأمراض النباتية والآفات الحشرية، لكنها متغيرة الأفراد، فى كل مرة يأتى طاقم جديد من الدكاترة، مختلف عمن قبله وبالطبع عمن سيأتى بعده! وذلك حتى يحصل الجميع على بدل المأمورية بالتتابع؟!

اعتاد كمال على استقبال هذه الزيارات الدورية، مرة كل شهرين، كنظام روتينى متعارف عليه، وعلى ضوء التوصيات التى تقوم اللجنة بكتابتها فى تقرير رسمى، يصرف ما تحتاجه المزرعة من مبيدات وأسمدة وشتلات جديدة وبذور وتقاوى مما تحتاجه الأشجار وزراعة المحاصيل الجديدة.

نزل الدكتور ممدوح وزميلاه إلى الزراعات وتفرقوا فيها، اتجه كل منهم إلى ناحية، وأخذوا يفحصون النباتات ويجمعون العينات

فى أكياس من القماش مخصصة لهذا الغرض، كان العامل الذى يتبعهم على بُعد وهو يدفع عربة يد بثلاث عجلات، يتسلم منهم أكياس العينات ويضعها فى عربته الصغيرة.

وقف كمال على رأس الحقل يتابعهم بعينيه دون أن يتبعهم ليترك لهم حرية العمل دون تدخل منه، كان قد تعلم درساً فى بداية عمله بالقصر، وهو بعد مازال شاباً متحمساً ينزل إلى حقول المزرعة مع اللجان ويشارك بالرأى فيما يراه من طرق مكافحة الآفات، ويتناقش مع أعضاء اللجنة فى أساليب رعاية المحاصيل ورفع إنتاجيتها، حتى فوجئ فى يوم برئيس إحدى اللجان يتهمه بالتدخل فى عمله، ويكتب فيه شكوى رسمية قدمها إلى المسئولين بأنه يعطل عمل اللجنة ويفرض رأيه على أعضائها.. ويتخطى حدود وظيفته ويتدخل فى اختصاصاتها العلمية!!

لم يمر الموضوع بسهولة واستغرق أسابيع طويلة ومريرة، كان شبح النقل من العمل فى القصر يهدده خلالها، اكتشف كمال – فى هذه التجربة – من طبائع الناس وما تخبئه نفوسهم ما لم يخطر له على بال، تلقى صدمات ومفاجآت متوالية أغلبها سيئ وقليل منها كان ساراً..

كان لابد من إجراء عدة تحقيقات إدارية للنظر فى الشكوى، تولتها الإدارة القانونية فى الوزارة، تم أثناءها استدعاء الكثيرين للشهادة، معظم الناس أخذوا موقف الحياد ولم يتبرع واحد منهم

بكلمة فى صالح كمال، وفيهم من كان يعتقد أنهم أصدقاء أو تربطه بهم على الأقل علاقات زمالة قوية، وهناك فريق أو مجموعة، أسماهم فيما بعد مجموعة الشر، نفثوا سمومهم وأحقادهم أثناء التحقيق بشكل مروع، هاجموه كأنه قاتل أو قاطع طريق يُحاكم أمام محكمة عسكرية بتهمة القتل العمد أو السرقة العلنية، وألصقوا به من الصفات والتهم ما يكفى ليقوده إلى حبل المشنقة أو السجن المؤبد على أقل تقدير، فعلوا ذلك بدم بارد ومشاعر ميتة، والأغرب.. بلا مبرر، فلم يكن فى نقل كمال أو توقيع جزاء عليه ما يُفيدهم فى شىء! ولا فى بقائه بموقعه أو ترقيته حتى، ما يضرهم أو يُنقص من أحدهم شيئاً؟! كانوا يحبون الأذى لذاته ويمارسونه باستمتاع يُشبع رغبات دفينة فى نفوسهم، لا طلباً لمنفعة أو دفعاً لضرر!

لكن بقيت هناك طاقة النور التى صنعها الفريق الأخير، هؤلاء الذين وقفوا بصلابة ليشهدوا له بالكفاءة والنزاهة وأنه شاب مهذب وابن ناس، يسأل زملاءه الأكبر منه سناً ويتناقش معهم باحترام ليتعلم منهم ويستفيد من خبرتهم لا ليتدخل فى عملهم ويعطلهم..

فى النهاية وبعد كثير من اللغط والتشويش وانتهاء صداقات وإقامة غيرها، ونشوء عداوات أبدية وتسمم العديد من العلاقات بالأحقاد، انتهى التحقيق ببقاء كمال فى موقعه الذى يعد متميزاً

من الناحية الوظيفية والمالية، مع توقيع جزاء خفيف عليه – تم شطبه بعد ذلك – إرضاءً للدكتور رئيس اللجنة.

***

كان يفضل لولا حضور اللجنة أن يحصل اليوم على إجازة، بسبب آلام ضرسه التى تهاجمه فى نوبات متتالية برغم قرص المسكن القوى الذى تناوله فى الصباح، كم يرغب أن يكون الآن فى عيادة طبيب الأسنان، كان يجب أن يكون هناك لولا هؤلاء الثلاثة الذين يتوغلون أمامه بين النباتات، وينحنون عليها باستغراق يفحصون أوراقها وسيقانها وبراعمها، لن ينتهوا قبل ساعتين.. أو ثلاث!

مازال اليوم أمامه طويلاً، ليس فقط العمل ولكن طريق العودة! هذه الرحلة اليومية الشاقة التى أصبحت مع الأيام أشق من العمل نفسه! أو أصعب ما فيه، وضع مضحك ومأساوى معاً، أن يكون مشوار الذهاب إلى العمل أو العودة منه أصعب وأشق على النفس من العمل؟!

عندما رأى القصر وحديقته والمزرعة الواسعة التابعة له أول مرة، منذ سنوات بعيدة، فرح بالعمل وبالمكان وأقبل عليه بحماس ونشاط، وقتها كان يستمتع بالمشوار على الطريق الزراعى فى الذهاب والعودة، المسافة لا تزيد على نصف الساعة، تمر سريعاً

والدقائق تنساب بسلاسة عبر مشاهد الحقول الممتدة على جانبى الطريق.

الشارع الإسفلتى فقط ظل على حاله، وفيما عداه تغير كل شىء على الطريق مع مرور السنوات، حُجبت الحقول خلف المبانى وتحولت المساحات الخضراء فى بدايته إلى مناطق سكنية، وتحول الطريق من شدة الزحام إلى قفص يُحبس فيه الإنسان لساعة أو ساعتين حسب الظروف! طوابير طويلة تمتد لنهاية الأفق، كل إنسان محبوس داخل سيارته كالفأر فى المصيدة، ينتظر فى توتر ويرتفع مستوى غضبه كلما أوغل فى الزحام، السير البطىء خانق، يدفع بالجميع إلى حالة من العدوانية، تكدس الناس فى مساحة ضيقة لمدة طويلة يصل بهم لدرجة من العصبية تقترب من الجنون..

يتذكر بيت شعر لشاعر قديم، ما ضاقت أرض بأهلها ولكن صدور الرجال تضيق.. الآن فى هذا الزمن شهدنا الأرض وهى تضيق بأهلها، نعيش هذا الحال كل يوم، كأن الناس تحيا فى قفص كبير لا يحاصرهم فقط ولكن يضيق عليهم يوماً بعد يوم!!

قفص.. يشبه ذلك القفص الذى أجريت فيه تلك التجربة العلمية لدراسة السلوك.

قفص مخصص لعشرين فأراً، جيد التهوية وبه أماكن للطعام والشراب، تعيش فيه الفئران بحرية وتقبل على كمية الطعام

المحددة لكل فأر بالجرام دون عراك أو شجار، وتتحـــرك فـــى أنحاء القفص آمنة مطمئنة، تلاعب بعضها البعض وتجرى وتقفز بمرح، وعندما تزيد كمية الطعام أو تتضاعف كان كل فأر يأكل قدر حاجته فقط، ويترك باقى الطعام الزائد عن حاجتـــه دون أن يمسه أو يهتم به.

ثم.. بدأوا فى زيادة أعداد الفئران بمعدل خمسة كل ثلاثة أيـــام، وبرغم وضع كميات كافية من الطعام للجميع، بدأت الفئران تقبل على التهام كميات أكبر من المعتاد، أزيد عن حاجتها الطبيعيـــة، وشراهتها تزداد بزيادة أعدادها، ثم تحول سلوكها مـــن الإقبـــال على الطعام بهدوء إلى الشجار والقتال ليفوز كل منهم بأكبر قدر يستطيع الحصول عليه، وهو ما جعل الفئران الأضعف تحصـــل بالكاد على ما يسد رمقها أو أقل، وتظل تبحث فى الأرضية عن الفتات والبقايا التى يتركها الآخرون الأقوى.. مع استمرار الزيادة وضيق المساحات، ارتفعت عصبية الفئران وزادت عدوانيتها مما جعل الشجار بينها لا يكاد يتوقف حتى فى غير أوقات الطعـــام، وعند حد معين وبعدما تجاوز العدد الضعف بكثيـــر، لـــم تعـــد الفئران تقبل على الطعام وزهدت فيه برغم وفرته، أصابها فقدان شهية جماعى! عندها بدأت مرحلة النهش بعدما تجاوزت مرحلة العراك والشجار الذى يخلف إصابات طفيفة أو خطيرة فى بعض

الأحيان، تركت الفئران الطعام واللعب وأخذت تنهش بعضها البعض..

***

خرج الدكتور ممدوح من الحقل وهو يمسك بأكياس العينات ويسلمها للعامل، لم تكن تلك الزيارة هى الأولى بالنسبة له، عبر سنوات عمله زار هذا المكان لثلاث أو أربع مرات، لكنها المرة الأولى له كرئيس لجنة، لذلك كان يشعر بشيء من التوتر بسبب قرار الإزالة الذى أُلقى على عاتقه، مما جعله منشغل البال بشأن ما قد يواجهه مع المسئولين من رؤسائه، فى داخل نفسه اتخذ القرار بعدم الموافقة، سيكتب فى تقريره بأن البستان مهمل وأشجاره مريضة لسوء التغذية والرى وعدم مكافحة الآفات، ويحتاج فقط للرعاية والخدمة حتى تعود الأشجار للإثمار من جديد.. وليكن ما يكون! إذا كانوا يريدون أن يقيموا المزيد من المبانى أياً كان السبب فعندهم الصحراء واسعة يبنون عليها ما يريدون من منشآت.. وليتركوا الأرض المزروعة فى حالها؟!

ابتسم فى نفسه وهو يتذكر زميله الدكتور "عادل"، الذى كان من المفترض أن يرأس هذه اللجنة، لكنهم فى اللحظة الأخيرة أرسلوه إلى مأمورية أخرى، وأسندوا له هو هذه المهمة الثقيلة، ترى كيف كان لأبى خطوة أن يتصرف لو كان فى مكانه الآن؟ ما هو القرار الذى يمكن لرجل مثله أن يتخذه؟ رجل لا يكاد يعرف شيئاً

عن كواليس الإدارة وخباياها، ويتعامل بمثاليات وقيم ثقافية مختلفة انفصلت عن أرض الواقع هنا وما يحدث فيه!

كانا زميلين لكن عادل أبى خطوة فى إحدى الفرص النادرة حصل على منحة لدراسة الدكتوراه فى أمريكا، واستطاع بعد فترة وجيزة أن ينتهى من رسالته ويحصل على درجته العلمية بتفوق جعل الجامعة هناك تعرض عليه أن يعمل بها، فوافق بلا تردد، لكنه لأسباب كثيرة لم يرض أن يترك وظيفته فى مركز البحوث، وحصل على إجازة مفتوحة بلا مرتب، وخلال السنوات التالية قدم عدداً من الأبحاث العلمية المرموقة، وضعت اسمه بين العلماء المتميزين فى علم الميكروبيولوجى على مستوى العالم، وحصل على عدة جوائز علمية مرموقة، لكنه برغم ما حققه من نجاح لم يستطع أن ينسجم بشكل كاف مع حياته فى أمريكا، ظل مؤرقاً بالحنين إلى بلده ومشاعره موزعة بين موطن صباه وشبابه وبين البلد الذى يعيش فيه، بثقافته المختلفة وطباع مواطنيه المغايرة تماماً لما نشأ عليه، كان يتشاغل عن هذه المشاعر بعمله وأبحاثه وتجاربه العلمية التى يجريها فى معامل مجهزة بأحدث ما توصلت له الإنسانية من تقنيات وآلات وأجهزة علمية، وبإمكانيات مالية مفتوحة تستجيب لكل ما يتطلبه البحث العلمى، وتوفر للباحث جميع سبل الراحة المعيشية من سكن

ملائم ومرتب مجزى ورعاية صحية، حتى يتفرغ لعمله بعقل خالٍ من الهموم المعيشية وأعباء الحياة اليومية.

لكن الدكتور "عادل" وبعد ما يقرب من سبع عشرة عاماً قضاها هناك، لم يزر بلده خلالها برغم حنينه إليها سوى مرة واحدة بعد حصوله على الدكتوراه مباشرة، ليحصل على إجازة بدون مرتب من عمله فى المركز، وليتزوج ويرجع بعروسه إلى أمريكا.

وبسبب انشغاله بعمله ومسئولياته التى كانت تزيد بمرور السنوات، لم يستطع العودة لزيارة بلده مرة أخرى، لكنه قرر بعد هذه المدة أن يُقدم على خطوة لم يُقدم عليها أحد ممن هاجروا قبله إلا فيما ندر، أن يرجع ليعيش ويعمل فى بلده مجدداً، لم يتحمل كرجل متدين أن ينشأ أولاده على قيم وسلوكيات لا تختلف عن معتقداته وحسب ولكن تتناقض معها تماماً، قال لنفسه كما أخبر زملاءه بعد ذلك، لابد أن ألحق الأولاد وهم مازالوا فى سن الطفولة قبل أن يصلوا لمرحلة الدراسة الثانوية، فعندها تفقد السيطرة عليهم ويضيعون، يصبحون "أمريكان" وينسلخون تماماً من مجتمع أبائهم وأجدادهم ولا يكون بمقدورهم العودة إليه ثانية.. أبداً، صعب عليه أن يكون كغيره من المهاجرين ويتعامل مع هذا الأمر كأنه شر لابد منه، أو كضريبة لابد أن يدفعها ليعيش فى هذا البلد، كان يرى هؤلاء المهاجرين الشرقيين وهم يغضون الطرف عن سلوك أبنائهم وبناتهم المتأثر بقيم وعادات

المجتمع الأمريكى، ويسمعهم وهم يقولون إنهم برغم أى شـــىء، قد وفروا لأولادهم حياة ومستقبلاً أفضل مما كانوا سيجدونه فـــى البلاد التى أتوا منها!

رجع البروفسير عادل أبى خطوه وتسلم عمله فى مركز البحوث وسط ترحيب زملائه، فى معمل القسم المكدس بالمكاتب أحضروا له مكتباً جديداً، وحشروه بين المكاتب الأخرى التى ملأت غرفة المعمل الواسعة.

القسم الذى عمل به أبو خطوة كباحث منذ تخرجه، يتـــألف مـــن غرفة يحتلها رئيس القسم، ومعملين كانا عند إنشاء المركز منـــذ عقود بعيدة، يواكبان أحدث ما توصل إليه العلم وقتهـــا، وظـــلا على حالهما لسنوات طالت كثيـــراً دون أى تطـــوير، الـــدواليب الخشبية ذات الواجهات الزجاجية التى توضع بها الأجهزة، أكلها الزمن وأصبحت عتيقة الطراز تليق بالمتاحف لا بالمعامل، بلاط الأرضية الرخامى الذى كان فاخراً فيما مضى، تضعضع وتآكل وظهرت فيه شقوق طولية!

يرجع إنشاء المركز إلى زمن الأساتذة الأوائل الذين تتلمـــذ أبـــو خطوه وأبناء جيله على تلاميذهم، وظل المركـــز خـــلال فتـــرة وجودهم متصلاً بمراكز البحث العلمى فى الدول المتقدمة، ويسهم بقوة فى إنتاج الأبحاث المتميزة التى كان يقوم بها جيل الأساتذة،

الذين حققوا من خلالها مكانة علمية مرموقة على مستوى العالم للمركز ولأسمائهم كعلماء.

***

جلس الدكتور عادل على مكتبه الجديد فى المعمل المكدس بالمكاتب، سعيداً برجوعه إلى بلده، يتلقى التهانى من زملائه وزميلاته الذين توافدوا من جميع أقسام المركز، على قراره الجرىء بالعودة، ويشرب زجاجات المياه الغازية وأكواب الشاى وفناجين القهوة التى يعزمون بها عليه طوال اليوم، ويتبادل معهم الحديث المرح عن ذكريات الشباب التى جمعتهم فى نفس هذا المكان عند بدء عملهم به، وفى نفس الوقت يتعرف على الزملاء والزميلات الجدد الذين توظفوا فى المركز خلال فترة غيابه.

الباحثون الشبان من طلبة الدكتوراه والماجستير أبدوا سعادتهم بوجود عالم كبير مثله بينهم، كانوا كلهم قد سمعوا عنه من قبل وبعضهم قرأ أبحاثه المنشورة فى الدوريات العلمية الكبرى، كان يصافحهم ويتكلم معهم ويسألهم عن التخصصات التى سجلوا فيها رسائلهم العلمية، ولاحظ مستغرباً أعدادهم الكبيرة التى تفوق احتياجات العمل والتى جعلت المكان مكدساً بالمكاتب، حتى لم يعد فيه مساحة تكفى لإجراء التجارب أو لأى نشاط آخر من أنشطة العمل البحثى؟!

بعد اليوم الثالث أخذ ينظر حوله ويرى مظاهر الإهمال، تلك التى تغاضى عنها فى البداية واعتبرها من الأمور العادية فى بلد فقير كبلده، كان حريصاً ألا ينظر بعين الرجل الخواجة إلى الأوضاع فى بلده، ولا أن يتعامل مع أى مشكلة تصادفه من هذا المنظور، لكن دبيباً خافتاً بدأ يتسلل إلى نفسه وهو يرى معظم زملائه الذين وصلوا إلى درجة الأستاذية، يجلسون على مكاتبهم بلا عمل تقريباً، فقط يقومون ببعض الأعمال الإدارية المتعلقة بالقسم، وبعضهم يشرف على رسائل ماجستير أو دكتوراه، وبين الحين والآخر يأتى إليهم الباحثون الجدد من الشبان والشابات، ليتناقشوا معهم حول بعض النقاط العلمية فى الرسالة.

بعد انتهاء فترة الترحيب التى امتدت لعدة أيام، وخفوت الضجة التى أثارتها عودته، ودخوله فى جو العمل الطبيعى، تبين له فداحة التغيرات التى حدثت أثناء غيابه الطويل، لم يعد هناك تجارب ولا بحث علمى بالمعنى الذى يعرفه! تحول المركز إلى مصلحة حكومية يعمل بها موظفو حكومة لا باحثون ناهيك عن كونهم علماء! وهم منشغلون بأمور كثيرة ليس البحث العلمى من بينها.

عندما اشتغل فى نفس هذا المعمل، كان الجميع ما بين ذاهب إلى حقل التجارب أو عائد منه، والذين فى المعمل منهمكين فى العمل البحثى وإجراء التجارب، ولا وقت لديهم للثرثرة، يرتدون بلاطى

المعمل البيضاء النظيفة وينحنون على الميكروسكوبات والعدسات المكبرة للعينات، يسجلون البيانات ويعملون وهم مستغرقون تماماً، أو يعدون المحاليل ويمسكون بأيديهم أنابيب الاختبار يفحصونها والدوارق أمامهم على مواقد لهب بنزن، الذى يعمل بغاز مخصص للمعامل.

كانت أعدادهم قليلة فى تلك الأيام، والمعمل يبدو أمامهم فسيحاً، كلٌ منهم يعمل فى مكان مخصص له وسط هدوء يليق بمكانة العلم، هدوء لا يعكر صفوه شىء مما يراه الآن؟!

ظل لأيام طالت فى ظنه لأكثر مما يجب، جالساً على مكتبه منتظراً أن يبدأ العمل، إنه الآن أستاذ دكتور بما يعنى أنه ليس بحاجة لعمل أبحاث للترقى، لكنه عاد وهو يريد أن يخدم بلده ويوظف علمه فى دفع عجلة البحث العلمى بها، اعتقد أن المركز الذى عمل فيه وتعلم حتى درجة الماجستير، سوف يستغل وجوده ومكانته العلمية كأحد العلماء المعروفين فى تخصصه، ليوكلوا له الكثير من المهام والمسئوليات التى يعرف أنه يستطيع انجازها على أكمل وجه..

لا شىء..! غير معقول أن تصل الأمور لهذا الحد؟ لا عمل على الإطلاق! تساءل فى نفسه وهو جالس على كرسيه فى المعمل.

يحضر فى السابعة والنصف صباحاً ويظل حتى الثانية ظهراً، فى حالة فراغ، لم يعد هناك ما يتكلم فيه مع الآخرين، بطبعه لا يحب

الثرثرة وتمضية الوقت فيما لا يفيد، يضع على عينيه نظارة القراءة وينشغل بمتابعة المراجع العلمية الحديثة والدوريات البحثية، أحضر معه الكثير منها ليستفيد بها فى عمله المزعوم هنا!

فى صباح أحد الأيام وبعد مرور ما يقرب من الشهر على عودته، صعد إلى مكتب مدير المركز وطلب مقابلته.

خرج المدير من غرفة مكتبه بمجرد علمه بوجود أبى خطوة، واستقبله بنفسه على الباب بدلا من سكرتيره، وقاده إلى الداخل باحترام بالغ وهو يرحب به.

هم الدكتور عادل بالكلام حتى لا يضيع الوقت، لكن المدير استوقفه بيده قائلا.

– قبل أن نتكلم، ماذا تشرب يا دكتور؟ هذه أول مرة تشرف مكتبى.

انتهز الدكتور عادل الفرصة ليدخل فى الموضوع من أقصر طريق.

– أنا زهقت يا دكتور من شرب الشاى والقهوة والعصائر، أريد أن أعمل.

– أنا فاهم طبعاً، نشرب القهوة ونتكلم فى الموضوع.

ضغط المدير الزر الذى يستدعى ساعى مكتبه، وطلب قهوة له وللدكتور أبى خطوة.

استأنف الدكتور عادل الحديث، قبل أن تحضر القهوة وقد شـــعر أن محاولته غير ناجحة من البداية.

– يا دكتور أنا أريد أن أخدم بلدى، استغل وجودى هنا، استفيدوا منى ومن علاقاتى بالمراكز البحثية المرتبطة بتخصصنا العلمى فى مختلف دول العالم المتقدم، أستطيع أن أنجز الكثير، وعنـــدى أفكار ومشروعات بحثية مهمة للمركز وللبلد.

استمع المدير وهو صامت وعلى وجهه شبح ابتسامة محرجة إلى كلام أبى خطوة، كان يشعر بورطة لوجـــود رجـــل مثلـــه فـــى المركز!

نظر إلى علبة سجائره الموضوعة على المكتب، ومد يده بـــبطء ليمسك بها، قدم سيجارة لضيفه، فاعتذر قائلاً أنه لا يدخن، أشعل المدير سيجارته وقبل أن يشرع فى الكلام، دخل الساعى بالقهوة.

– اتفضل يا دكتور عادل.

قال مشيراً إلى الفنجان المذهب المصنوع من الصينى الفاخر.

– متشكر يا دكتور.

رشف المدير رشفة من فنجانه، وسحب نفساً عميقاً من سيجارته، قبل أن يقول.

– طبعاً أنت تعلم يا دكتور أنى زميل لكم قبل أى شىء، أنا باحث ورجل علم أولاً بغض النظر عن المناصـــب والعمـــل الإدارى، وأيضاً عندى طموحات وخطط لتطوير المركز، أتمنى ليس فقط

أن أجدد المعامل ولكن أن أنشئ معامل جديدة متطورة على أحدث ما توصل إليه العلم، وأستورد أجهزة ومعدات جديدة بدلاً من أجهزتنا التى أعرف أنها متأخرة، أريد أن أدفع العمل البحثى فى المركز للأمام حتى نشارك بأبحاثنا مع بقية دول العالم، وأن أستغل طاقة شبان وشابات الباحثين وأتيح لهم الفرصة لتطبيق ما لديهم من أفكار وقدرات على الابتكار والتطوير، ولكن..

أنا بالطبع أعرف مكانتك العلمية وقدرك، ومدى ما وصلت إليه خلال عملك فى الخارج، لذلك سوف أكون صريحاً معك، فأنا أجلس فى مكتبى هذا وأنا مقيد رغماً عنى بالميزانية، والمساحة التى أستطيع التحرك فيها محدودة بسبب ضعف الإمكانيات المادية، معظم ميزانية المركز تذهب أو تضيع فى مرتبات العاملين هنا، وما يتبقى قليل لا يكفى سوى التجارب العادية التى يقوم بها أولادنا من طلبة الماجستير والدكتوراه!

كنت أتمنى أن أجد لك معملاً مناسباً به أجهزة حديثة، وأوفر له ميزانية لائقة بك وبأبحاثك، لكن الأمر ليس بيدى كما ترى.

لكن على كل حال الصورة ليست قاتمة تماماً، لدى المركز مشروعات بحثية سوف أدعوك للمشاركة بها، وكذلك الكثير من التجارب الحقلية التى نجريها على أصناف جديدة من المحاصيل ذات الإنتاجية الأعلى، والعمل التطبيقى الذى نجريه مع المزارعين فى حقولهم وبساتينهم، فنحن فى المركز كما تعرف يا

دكتور، نهتم بالجانب التطبيقى أكثر من الجانب الأكاديمى البحت الذى هو عمل الجامعة طبعاً.

***

فى صباح اليوم التالى وجد الدكتور عادل جهاز كمبيوتر جديد متصلاً بالإنترنت على مكتبه، وبعدها بأيام بدأ اسمه يوضع فى اللجان ليخرج فى مأموريات مع زملائه، فى أول مأمورية له ظل صامتاً يلاحظ ما يفعله رفاقه، ثم علق قائلاً فى نهاية اليوم، هذا عمل المهندسين وليس الدكاترة، هذا ليس عملنا؟!

obeikandl.com

8

وجد سلومة وهو على مشارف العشرين من عمره ضالته فى الكشك، بعد سنوات من التخبط بين الحرف، عمل خلالها فى العديد من الورش ولم يستقر على عمل فيها أبداً، حتى أقام أبوه الكشك، أحب العمل فيه منذ اليوم الأول، التجارة والبيع والشراء، شراء البضائع من التجار جملة بالآجل، وبيعها قطاعى نقداً للزبائن.

بعد مرور عدة سنوات على إقامة الكشك ومع حركة امتداد العمران وشق طرق وشوارع جديدة، أقيم شارعٌ كبيرٌ أمام الفيلا سرعان ما امتلأ بالعمارات والسكان وأصبح يشغى بالزحام، مما جعل العمل فى الكشك يزدهر مع توافد الزبائن وامتداد حركة البيع على مدى النهار وحتى ساعة متأخرة من الليل، وأخذت كمية البضائع التى يتعامل بها تزيد، جميع أنواع السجائر والدخان وأصناف البسكويت والشيكولاتة وحلوى الأطفال وعلب الشاى والكبريت والولاعات البلاستيكية، وثلاث ثلاجات لشركات المياه الغازية والعصائر، بالإضافة إلى بيع الصحف والمجلات.

يستيقظ صالح مبكراً ويفتح الكشك ويظل جالساً على الكرسى الموجود بداخله حتى قرب العصر، بعد الظهر بقليل يأتى سلومة

ليقف مع أبيه ساعة أو ساعتين، يعرف خلالها حسابات فترة الصباح، والبضائع الجديدة التى وردت بسيارات نصف النقل التابعة للمصانع والشركات التى يتعاملون مع منتجاتها، وما تسلمه مندوب كل شركة من مبالغ نقدية، يراجعان الحساب معاً بصوت خافت لا يسمعه الزبائن الملتفون حول الكشك وأمام الثلاجات والحامل المعدنى الذى توضع عليه الصحف والمجلات، ثم يتسلم منه العمل إلى ما بعد منتصف الليل.

فى صباح أحد الأيام فوجئ صالح بحضور بعض الرجال إلى الكشك، ذكره أحدهم على الفور بوفيق الرسام، ليست الملامح ولا التكوين الجسمانى ولكن الهيئة ونوعية الملابس، الشعر الطويل المهوش واللحية والمشذبة بطريقة ما خاصة بهذا النوع من الناس، الفنانين أو الرسامين تحديداً، بقية الرجال يرتدون بدلات أنيقة وتبدو عليهم مظاهر الثراء، كان صالح قد لمحهم من مكانه وهم ينزلون من سيارة فاخرة، ركنوها بعد الكشك بمسافة بسبب زحام الشارع بالسيارات.

– هل هذه فيلا وفيق بسيونى؟

سأل أحد الرجال صالح بصوت قوى واثق، وبشىء من التعالى.

تردد صالح لعدة ثوان، تأرجح فيها عقله بين عشرات الاحتمالات عن طبيعة هؤلاء الرجال، وإذا كانوا من موظفى الحكومة أم

رجال الشرطة أو غيرهم ممن يستطيعون أذيته، لكنه أجاب فـــى النهاية بصوت متردد.

– نعم يا سعادة البيه، هى فيلا المرحوم وفيق بسيونى.

أخرج الرجل من محفظته ورقة مالية من الفئة الكبيرة، وضـــعها فى يد صالح، ثم قال بنفس اللهجة.

– طيب يا حاج، نريد أن نرى اللوحات الموجودة فى الفيلا!!

آخر ما كان صالح يتوقعه، يااااه.. بعد كل هذه السنوات، مازال هناك من يتذكر اللوحات؟! لقد نسى هذا الأمر تقريباً برغم أنـــه مازال يحتفظ بها فى الغرفة المغلقة، ولا يسمح لأحد مـــن أولاده أن يدخل هذه الغرفة أو يفتح بابها.

لو حدث جرد للوحات ومحتويات غرفـــة المرســـم، ســـيجدونها كاملة، فقد عاش هذا العمر وهو يحافظ عليها، تغيرت فيها الدنيا ولم يبق شىء على حاله، هذه العمارات العالية والشوارع وهؤلاء البشر بزحامهم وصخبهم وضجيجهم، ومشاكلهم ومشاجراتهم التى لا تنتهى، بدلاً من الحقول والغيطان والهـــدوء والـــدنيا الحلـــوة والناس الطيبين..

لكن رجال الحكومة سواء كانوا موظفين أو شرطة، لا يـــدفعون إكراميات ولا بقشيشاً كما فعل هذا الرجل، رجال الحكومة يفعلون العكس، يأخذون ما تطوله أيديهم، وأصبحوا فى الآونة الأخيـــرة يطلبون صراحة وبلا حياء!!

– من حضرتك؟

قال صالح للرجل متسائلاً عن هويته.

رد الرجل بكلمة واحدة، وهو يشير بأصبعه إلى حامل الجرائد الموضوع بجانب الكشك.

– صحافة؟! ثم أضاف موضحاً، وكأنه مستعد لهذا السؤال.

– نريد أن نعمل تحقيقاً فى الجرنال عن الأستاذ وفيق وأعماله، وسوف نقوم بتصوير الفيلا والمرسم واللوحات.

كرجل قضى معظم عمره على الرصيف يتعامل مع كافة أنواع البشر فى الشارع، أحس صالح أن الرجل كذاب، كان بالفعل قد سبق له التعامل مع الصحفيين فى بداية عمله كغفير للفيلا، كانوا يأتون ويسألونه بضعة أسئلة وهم يتأملون مبنى الفيلا ويدورون حولها، وأحيانا كانوا يطلبون الصعود إلى السطح ليروا المنظر من أعلى، ويتقبلون ببساطة اعتذار صالح بأنه لا يملك مفاتيح الباب، كانوا أفندية محترمين لكنهم يرتدون ملابس عادية، قمصان وبنطلونات لا بدل فخمة كهؤلاء الرجال!

على كل حال سنرى من هم، وماذا يريدون بالضبط؟ قالها لنفسه قبل أن يسمح لهم بالدخول.

– اتفضلوا.

***

كانت طبقات كثيفة من التراب تغطى كل شىء فى حجرة المرسم الواسعة، جعلت الجميع يسعلون بمجرد أن وضعوا أقدامهم فيها.
أسرع صالح بفتح النافذتين الكبيرتين المطلتين على الحديقة الجرداء ليجدد الهواء فى الحجرة، فأثار زوبعة من الغبار احتاجت لعدة دقائق حتى تنقشع، توقف الرجال داخل المرسم المهجور وعيونهم تستكشف أرجاءه تدريجياً، مئات من اللوحات موضوعة داخل اسطوانات معدنية وكرتونية مغلقة مرصوصة فى رفوف معلقة على الحوائط، تماثيل صغيرة ومتوسطة الحجم مغطاة بمشمع تحتل أحد الأركان، عدد كبير من حوامل اللوحات بعضها مصنوع من الخشب والأخرى من المعدن.
لم تكن عملية استخراج اللوحات من اسطواناتها وفحصها عملية سهلة، لكن الرجال أقبلوا على عملهم دون أن يعبأوا كثيراً بكميات التراب المتراكمة على الاسطوانات والأرفف، كانوا يعرفون ما يفعلونه، وبدا أنهم محترفون وعلى دراية بالكشف على اللوحات وفحصها.
وقف صالح صامتاً يراقب الرجال وهم يعملون، ثم اقترب من الباب ونادى على واحدة من بناته وأمرها أن تعد الشاى للضيوف.
تقبل الرجال الشاى الساخن بترحاب، وأسرعوا بارتشافه ليرطب حلوقهم التى جفت من استنشاق الغبار، أدرك صالح أنهم فيما عدا

الرجل الذى تكلم معه عند الكشك والآخر الذى له هيئة الرسامين، ينتمون إلى بلد من بلاد الجوار التى أصابها الثراء بشكل مفاجئ منذ سنوات قريبة؟!

كانوا يفردون اللوحة بين أيديهم بعناية ويدققون النظر فيها ثم يعيدونها إلى الاسطوانة المجوفة ويغلقونها بإحكام، كانت الألوان تتوهج بين رؤوسهم وأكتافهم وهم يشكلون دائرة حول الرسم، يتأملونه وهم يبدون ملاحظاتهم ويتناقشون بسرعة حول تاريخ رسم اللوحة والمكان الذى رُسمت فيه، قبل أن ينتقلوا إلى غيرها. بعض اللوحات استرعت اهتمامهم أكثر من غيرها، كانوا يستغرقون وقتاً أطول فى فحص تلك اللوحات، وفى النهاية يضعون اسطوانتها جانباً ولا يعيدونها إلى الرف؟!

بعد ما يقرب من الثلاث ساعات كان هناك تسع لوحات موضوعة جانباً!

– ممكن نغسل أيدينا يا حاج؟

قال الرجل مخاطباً صالحاً وعلى وجهه ابتسامة متوددة وهو يرفع كفيه المتربتين فى الهواء.

قادهم إلى الحمام الذى كان برغم فخامته وجدرانه وأرضيته المكسوة بالرخام الفاخر، فى حالة يرثى لها، جميع الصنابير تتسرب منها المياه على شكل خيوط رفيعة أو سيل من النقط، المواسير تنشع هى الأخرى وتبلل الأرض.

غسل الرجال أيديهم ووجـــوههم وأزالـــوا آثـــار الغبـــار قـــدر استطاعتهم، بينما صالح ينتظرهم منشغل البال، كان لما شعر أن الأمر سيطول، أيقظ سلومة من نومه ليقف فى الكشك بدلاً منـــه، ليبق هو فى صحبة الرجال الغرباء داخل المرسم، بمرور الوقت تأكدت شكوكه فيهم، ليسوا صحفيين! زيارتهم لها غرض آخـــر، غرض غير برىء؟!

بعد رجوعهم إلى حجرة المرسم دون دعوة من صالح، الذى كان يريدهم أن ينصرفوا ويا دار ما دخلك شر، تلكئوا قبل أن يفـــتح أحدهم حقيبة كانت معهم، فعل ذلك ببطء كأنه يبحث عن شىء ما فيها متعمداً أن يرى صالح رزم الفلوس بداخلها، اقترب الرجـــل الذى تولى الكلام مع صالح منذ البداية وانتحى به جانباً.

– نحن فى حاجة إلى خدمة منك يا عم الحاج!

كان عقل صالح قد تاه بعد رؤيته رزم الفلوس، صحيح أن الحال أصبح أفضل بكثير بعد وجود الكشك، انتقل من الفقر المدقع إلى درجة أعلى، لكنها لا تصل به مع كثرة العيال وغلاء المعيشـــة الذى لا يتوقف إلى حالة الستر، بالكاد يعيش ويـــدبر مصـــاريف البيت والعيال، يبيع بضائع الكشك الرخيصة بالقروش والأربـــاع والأنصاف، يجمع الفكة ويضع القرش على القرش طوال النهار ليسدد قبل أى شىء ثمن البضاعة التى يحصل عليها بالآجل..

– خير يا سعادة البيه.

– نحتاج القليل من هذه اللوحات فى عملنا..

قاطعه صالح على الفور.

– لكنها عهدة عندى وأنا مسئول عنها.

– سوف نعوضك.. ولن يشعر أحد بنقصان بضعة لوحات، ستستفيد من هذا الأمر ونستفيد نحن كذلك، منفعة لنا ولك! هذه اللوحات منسية هنا منذ ثلاثين سنة، من الذى سيأتى ليحاسبك أو يسألك عنها؟

– لكن يا سعادة البيه..

انحنى الرجل بحركة سريعة على الحقيبة ورفع غطاءها وسحب منها رزمة ودسها فى يد صالح.

– لا لكن ولا حاجة، رزق من عند ربنا وجاء لحد عندك وفى السر والكتمان لا من شاف ولا من درى!

أمسك صالح برزمة الفلوس وسكت كالمغلوب على أمره، فأسرع الرجال بإخراج اللوحات التسع من اسطواناتها القديمة ووضعوها داخل اسطوانات جديدة كانت بحوزتهم، ثم وضعوها فى حافظة قماشية كبيرة تشبه الكيس.

***

لمح سلومة الرجال وهم يخرجون من الفيلا بحملهم وخلفهم أبوه، فأدرك ما حدث وابتسم فى سره، يا ترى كم دفعوا فى هذه المصلحة؟ لابد أنه مبلغ محترم.. حلال عليك يا حاج!

كان سلومة قد بدأ تجارته الخاصة بنجاح، بعد الحادية عشرة مساءً يبدأ فى بيع قطع الحشيش والحبوب المخدرة لزبائنه، صنع مخزناً سرياً فى حديقة الفيلا يخبئ فيه بضاعته التى لاقت رواجاً كبيراً بين أبناء الحى.

بالطبع وصلت الشائعات إلى أبيه لكنه كعادته، سمع ولم يهتم، تجاهل الأمر كأن الموضوع لا يعنيه، منذ أن وصل سلومة إلى سن الشباب وربما من قبلها وهو لا يتدخل فى شئونه الخاصة، ويتركه يفعل ما يشاء، ويعلم أنه يسرقه فى حسابات الكشك ويختلس لنفسه بعض النقود زيادة على نصيبه أو أجره اليومى، لكنه يتغافل ويسكت على مضض خوفاً من شراسة ابنه وغلظه طباعه، وهذا الصوت الخشن المخيف الذى يصدر منه حتى وهو يتكلم بهدوء، صوت إذا ارتفع يستطيع أن يصل إلى نهاية الشارع بسهولة، ويسمعه سكان الأدوار العليا وهم فى شققهم! بعض الناس يأتون ويشترون من الكشك ليصبحوا من زبائنه وبذلك يتقون شره لو صادفوه فى أى مكان بالحى، فبرغم كل شىء كان سلومة يتعامل مع زبائن الكشك باحترام ويبدو ودوداً وهو يناولهم طلباتهم ويأخذ منهم النقود.

أحد سكان الشارع الجدد وهو رجل خمسينى يعمل فى مجال الموسيقى، ربما ملحن مغمور أو عازف فى فرقة، قال له يوما

على سبيل المداعبة ولكن بلهجة جادة وهو يشرب زجاجة مياه غازية.

– لو أنك لم تدخن من الصغر، واتجهت للغناء بهذا الصوت الذى تمتلكه لربما كان لك شأن كبير فى عالم الموسيقى والطرب.

لكن سلومة لم يستسغ المداعبة وزغر له بعينيه وقال مستنكراً.

– غناء إيه وموسيقى إيه يا أستاذ، إحنا مالنا ومال الكلام ده؟!

وبعد أن مشى الرجل قال سلومة بصوت خفيض سمعه الذين كانوا يقفون قرب الكشك.

– أما راجل علج صحيح!

وهو طفل كان أبوه يضربه بقسوة ويسبه عندما يفيض به من شقاوته وما كان يسببه له من مشاكل لا تنتهى مع الناس، يضيق به وبتهوره وعراكه ومشاكسته لخلق الله، على خلاف طباع الأب الذى يميل إلى السكينة ولا يحب المشاكل ولا طاقة له عليها.

مع مرور السنوات نما الطفل بسرعة وتعلق جسده طولاً وعرضاً بدرجة أدهشت أباه، وجعلته لا يكف عن ضربه وسبه فقط ولكن يخشاه أيضاً، ويلين فى تعامله معه إلى الحد الذى جعله فى النهاية لا يتدخل فى شئونه، خاصة وأن مشاكل الابن لم تعد تصل إلى الأب ولم يعد الناس يأتون إليه ليشتكوا من أفعاله، بعد أن أصبح الابن قادراً على حل مشاكله أو التعامل معها بنفسه

بعيداً عن أبيه من ناحية، وإدراك الناس عجز الأب عن ردع ابنه من ناحية أخرى.

***

– يا حيوان يا ابن كلب، إياك أن تجرؤ على دخول هذا الشارع مرة أخرى؟!

ظلت هذه الجملة تتردد فى عقل سلومة لفترة طويلة، لسبب ما ودوناً عن كل كلمات السباب التى تلقاها فى مشاجراته ومشاحناته مع أنماط مختلفة من الناس بقيت هذه الجملة محفورة فى ذاكرته، برغم كثرة ما مر عليه من أهوال، برغم لامبالاته وغلظة مشاعره تجاه الناس عموماً، هكذا خُلق.. أو هكذا وجد نفسه، لا يعرف الشفقة ولا التعاطف مع أحد، ما بينه وبين غيره من الناس مجرد مصالح ومعاملات ليس إلا! نفسه وجسده واحتياجاته المادية المباشرة هى عالمه والكون الذى يعيش فيه، وتحقيق هذه الاحتياجات تمثل الهدف من الحياة وغاية ما يصل إليه تفكيره؟!

هكذا صاح عصام فى وجه سلومة بعد مشاجرتهما الأولى التى سمع بها أهل الحى كلهم، عصام شاب ينتمى لأسرة من أهل الحى القدامى، الذين سكنوه منذ أن كان حياً راقياً ويعد من أحياء الضواحى الهادئة، طالب جامعى، طويل القامة قوى الجسد، يمارس رياضة الكاراتيه فى ناد رياضى يقع خارج الحى.

فى عصر يوم صيفى وأشعة الشمس تلهب الجو وأعصاب الناس معاً، كان سلومة يتسكع فى الشوارع بصحبة رزق وصديق ثالث لهما، ودخلوا الشارع الذى يسكنه عصام مصادفة، شارع جانبى هادئ نسبياً عماراته القديمة ذات الثلاثة أو الأربعة طوابق تتميز بالطراز المعمارى الأنيق الذى كان من سمات الحى، وبه بعض الفيلات القديمة التى تحيط بهـا حـدائق قاحلـة بسـبب عجـز أوشيخوخة أو موت أصحابها، معظم هذه الفيلات تخلو تباعاً من سكانها لتنتظر دورها الآتى فى طابور الهدم.

لمح سلومة فتاة جميلة من سكان الشارع تأتى من الناحية المقابلة، انتظر حتى أصبح فى مواجهتها ومال عليها هامساً بكلمة، احمر على أثرها وجه الفتاة وتوقفت فى مكانها مبهوتة، فى نفس الوقت كان عصام يقف بالمصادفة مع بعض أصدقائه أمام العمارة التى يسكنها.

بمثل تلك الكلمة كان سلومة يعاكس الفتيات عشرات المرات فى اليوم، لا تمر به فتاة أو سيدة تسير بمفردها إلا مال عليها ورمى فى أذنها بكلمة نابية، لا يزيد عن كلمة أو كلمتين، ممـا يخطـر على باله وحسب ما تمليه اللحظة من قاموسه المكدس بكل أنواع التعابير والإيحاءات والإشارات والألفاظ البذيئة، التى تتركز على كل ما يتعلق من بعيد أو قريب بالجنس والعملية الجنسية؟!

بوغتت الفتاة لكنها لم تسرع بالهرب مبتعدة وهى تتعثر فى خطواتها كما يحدث عادة، وقفت بشعرها الأسود الطويل وقامتها الرشيقة ووجهها الخمرى الرائق وعينيها السوداوين الواسعتين، تنظر إلى سلومة باحتقار، نظرة لم تستمر سوى لحظة، جعلته يرتبك رغماً عنه ويفاجأ برد الفعل غير المتوقع والذى لم يحدث معه من قبل، لم تكن الفتاة والتى عرف فيما بعد أن اسمها سلوى فزعة أو خائفة منه ومن صاحبيه، بل كانت غاضبة مما لحق بها من إهانة.

لم يكن سلومة قد دقق فى ملامحها، على المجمل ومن هيئتها وهى تأتى من بعيد أدرك أنها جميلة وأنيقة المظهر وتحديداً من نوعية الفتيات اللاتى لا يلتفتن لمثله، وهو ما جعله بشكل لا واعٍ ينتقى أشد الكلمات بذاءة ليقذفها فى أذنها، دائماً كانت لديه الرغبة فى الانتقام ممن يتفوقون عليه مادياً واجتماعياً وثقافياً، كان الأمر فى اعتقاده سيمضى مثلما يحدث مع مئات الفتيات اللواتى يصادفهن فى طريقه، يعاكسهن فى لحظة عابرة لمجرد أنهن فتيات ولا يلبث أن ينساهن بعد عدة أمتار.

لكن رد الفعل المباغت منها والذى كان بمثابة صدمة له، أتاح له أن يتأملها ويدقق فى ملامحها وتفاصيلها عن قرب، عدة ثوانى كانت كافيه لتبقى تلك الملامح فى ذاكرته طويلاً، مقترنة برائحة عطرها.

جسدها ينضح بالحرارة من أثر المشى والغضب ومعهـا يفـوح بالعطر الذى تنفسه بعمق، وملأه بمشاعر لا عهد له بها، أحـس برغبة جارفة فى احتضان هذا الجسد ولكن بحب وعشق، تمنـى لو كان باستطاعته أن يحب هذه الفتاة الشجاعة الجميلة!

مجرد لحظة عرف فيها نوعاً من المشاعر لم يجربه مـن قبـل، ولن يمر به بعد ذلك، مشاعر مغايرة لما تعوده، مر خلالها بحالة من الصفاء لم تدم إلا لثوانى، سيظل يتذكر هذا الإحساس بـرغم السرعة الخاطفة التى مر بها..

– يا واطى يا وسخ؟!

صرخت فى وجهه بشراسة جعلته ينتبه لحقيقة الموقف، اسـتعاد نفسه بسرعة، لم يكن لديه أى استعداد للانسحاب مهزوماً، قبل أن يفكر انطلق لسانه بشتمة أخرى، خرجت هذه المرة عالية زاعقة.

كان عصام الذى يقف مع ثلاثة من أصدقائه أمام عمارته وهـى نفس العمارة التى تسكنها سلوى، قد لاحظ الموقف مـن بدايتـه وأغض الطرف كأنه غير موجود، فمجرد كلمة معاكسة تسمعها فتاة لا تستحق أن يشتبك من أجلها فى عراك مع هؤلاء الصـيع الذين يأتون من أطراف الحى ليتسكعوا هنا، كما أن أمر سلوى لا يعنيه من الأصل، فهى أكبر منه بسنوات، تخرجت فى الجامعـة منذ عدة أعوام وتعمل فى وظيفة ما، ولا يهتم بأن يظهر أمامهـا كحامى أو بطل، لكن موقفها غير المشهد وجعله يسير فى اتجـاه

مختلف، بشكل أو بآخر شعر بأنها لولا وجوده مع أصدقائه على مقربة منها، لما تصرفت على هذا النحو؟!

مع تصاعد الموقف اضطر للتدخل، لكنه فضل أن يفعل ذلك من بعيد وهو فى مكانه حتى لا يتطور الأمر إلى مشاجرة، صاح فى سلومة أملاً أن ينتهى الموقف عند هذا الحد.

– أنت يا له.. غور من هنا.

لكن سلومة التفت نحوه وقال بكل ما فى نفسه من سخط.

– وأنت مال أمك أنت الآخر.

– أمى.. يا وسخ يا بن الكلب.

أصبحت المشاجرة حتمية، مشى عصام بخطوات سريعة واسعة نحو شلة الشبان الصيع الذين تخطوا حدودهم وقلوا أدبهم فى شارعه، اتجه إلى سلومة الذى يفوقه حجماً وباغته بركلة من قدمه فى البطن وضع فيها كل قوته.

انحنى سلومة رغماً عنه من شدة الضربة، وأطلق لسانه بشتمه سب فيها أم عصام مما أثار جنونه، فقفز وضربة بقدمه الأخرى فى صدره، وظل لعدة ثوان يوجه ركلاته المتتابعة إلى جسد سلومة الذى فوجئ بهذا النوع من العراك اليابانى، وبضرباته الخاطفة المركزة المختلفة تماماً عما تعوده، شلت حركته وعجز عن التنفس من قوة الضربات التى تلقاها فى بطنه وصدره، لكنه لم يستسلم وحاول أن يمسك بعصام من وسطه ليرميه على

الأرض ويبرك فوقه بجسده الثقيل، حسب طريقته المعتادة فـــى الشجار، لكن عصاماً تملص من يديه وانهال على وجهه ورأسه بلكمات قاسية جعلته يصل إلى حافة فقدان الوعى.

فى هذه الأثناء اشتبك أصـــدقاء عصـــام مـــع رزق وصـــاحبه ليمنعوهما من مهاجمة عصام، كانوا أولاد مدارس غير بـــارعين فى الشجار ولا خبرة لهم به، فاستطاع رزق أن يضربهم بمعاونة صديقة قبل أن يتجمع الناس عليهم بالعشرات ويمـــلأوا الشـــارع خلال ثوان، ليحولوا دون تطور المشاجرة إلى معركة دامية بعد أن أخرج رزق وسلومة وصديقهم مديهم المخبأة، ولم يلبث الناس بعد معرفتهم بسبب المشاجرة أن انهالوا على الثلاثة بالضرب.

***

- أخذنى على خوانة!

قال سلومة وهم يخرجون من الشارع وبعد أن ابتعدوا عن الناس، محاولاً تبرير ما حدث لصديقيه اللذين كانـــت أثـــار الصـــفعات والأقفية التى نالوها من الناس تلون رقبتيهما ووجهيهما.

نظر له رزق بغيظ وسبه، كان فارق العمر بينهما يجعله يملـــك الجراءة على تعنيفه وسبه عندما يتمادى، لكن فى هذه المـــرة رد له سلومة الشتيمة بأفظع منها حتى كادا يشتبكان بالأيـــدى لـــولا تدخل صديقهما الثالث الذى انحاز لـــرزق وزعـــق فـــى وجـــه

سلومة.. سار الثلاثة بعدها صامتين وقد شرخت صداقتهم، ظلت ذكرى العلقة حاجزاً بين رزق وسلومة ولم تعد علاقتهما بعدها لسابق عهدها.

انسحب سلومة من الشارع بوجه متورم وجسد ممتلئ بالرضوض، كانت المرة الأولى له التى ينال فيها مثل تلك العلقة ويخرج منهزماً من شجار فى الشارع.

توارى فى البيت لعدة أيام حتى خف أثر التورم وزالت الدوائر الزرقاء الى حد ما، أثر الضرب لا يعد شيئاً ذا بال بالنسبة له إذا قيس بخزى الهزيمة، ظل يفكر فى طريقة للانتقام من عصام، لابد أن يضربه..

قال أحد الرفاق فى جلسة جمعت عدد كبير منهم.

– نخطف البنت ونضاجعها؟! هذا أحلى انتقام، نكسر عين شارعهم كله ولا يستطيع رجل فيهم أن يرفع عينه بعد ذلك!

صاح فيه سلومة.

– أنت حمار، خطف إيه وزفت إيه، دى فيها مؤبد يا أهبل، إحنا ناقصين.. ندخل فى مشاكل مع الحكومة كمان.

برغم شقاوته واندفاعه وميله الفطرى للشجار والمشاكسة، كان حريصاً دائما فى مشاكله الكثيرة مع الناس واصطدامه الدائم بهم، على تجنب الوصول إلى الحد الذى يعرضه للقبض عليه وللسجن بعد ذلك، كان حريصاً على حياته وعلى التمتع بها إلى الحد الذى

يجعله لا يحب أن يُضيع جزءاً منها فى السجن، هاجس القبض عليه وسجنه وحرمانه من الخمر والحشيش والنسوان لسنوات أو لشهور، كان الشىء الوحيد الذى يعقل تهوره ويجعله يقف عند الحد الآمن، الذى يجنبه التعامل مع مخبرى الشرطة وضباطها والتعرض لقسوتهم، التى عرفها عدة مرات فى طفولته ومراهقته وسمع عنها أضعاف ذلك من رفاقه، وبشكل غريزى وبرغم قدرته المحدودة على القراءة كان يعرف العقوبات ومدد السجن على جميع أنواع الجرائم.

ظل رفاقه يلمحون له بالانتقام ويسخرون منه فى كل جلسة تجمعهم، ولكن بمزاح وهم يتصنعون الضحك خوفاً من إثارة غضبه، كانوا يعايرونه انتقاماً لأنفسهم من سطوته عليهم وتنفيساً عما فى صدورهم تجاهه، جميعهم يحقدون عليه بدرجات متفاوتة ويحسدونه على ما يتمتع به من ضخامة جسد وقوة، تجعله يستطيع بسهولة أن يتغلب على اثنين أو ثلاثة منهم!!

لكن ما أزعجهم إلى حد الصدمة وزاد فى رغبتهم بالانتقام، أنهم لم يتصوروا أن هذه القوة الجبارة التى يعتبرونها – برغم ما فى أنفسهم من حقد عليها وغيرة منها – تمثلهم أو تنتمى إليهم، يمكن لها أن تُهزم وبهذا الشكل على يد شاب طرى من شبان الجامعة، الذين يعتبرهم سلومة ورفاقه مخنثين وأنصاف رجال!!

كان سلومة قد توقف رغماً عنه وبشكل لا إرادى عن معاكسة الفتيات فى الشارع، لكن فكرة الانتقام ظلت تراوده وتنغص عليه حياته، قضى شهوراً وهو يترصد عصاماً ويتابع تحركاته، يحوم حول الجامعة والنادى الذى يتدرب فيه، ويكمن على مقربه من بيته وهو يلف جنزيراً حديدياً ضخماً حول وسطه ويخفيه تحت ملابسه.

فى هذه الأثناء شاهد سلوى عدة مرات، التقارب بينه وبينها فى الاسم يجعله يشعر بحميمية خاصة تجاهها، يفكر فيها كثيراً وهو على السرير قبل أن ينام، يتخيلها بين يديه تبادله الحب، يحدق فى تفاصيلها وتضاريس جسدها عندما يراها بالنهار من بعيد، يلتهمها بعينيه ويتمنى لو كان باستطاعته أن ينقض عليها ويحملها بين ذراعيه ويجرى بها إلى مكان مهجور لا يصل إليه إنسان، يحلم بغرفة يضعها بداخلها ويغلق بابها عليها ويحتفظ بالمفتاح، يدخل فى أى وقت ليجدها تجلس عارية فى أحد الأركان...

***

لم يكن سهلاً أن ينفذ انتقامه مع شخص حذر يمشى بثقة بالغة وهو يفرد جسده الرياضى المفتول العضلات الفارع الطول فى الهواء، شاب لا يجيد فنون القتال فقط ولكن يعتبرها هوايته المفضلة ويتدرب عليها منذ طفولته؟!

أدرك سلومة أنه لن يستطيع أن يتحدى عصام ويشتبك معه وجهاً لوجه، لابد أن يهاجمه ليلاً بالجنزير ومن الخلف، قدر لو أنه تعرض للضرب مرة أخرى على يديه، فإنه لن يستطيع أن يرفع رأسه فى الحى بأكمله مرة أخرى، لو حدث هذا سيكون عليه أن ينزوى بعيداً عن أعين رفاقه ومعارفه، وسيفقد سطوته عليهم نهائياً، أما الحل الآخر وهو التغاضى عن الأمر والتنازل عن الثأر فأمر مستحيل؟!!

obeikandl.com

9

عندما كان الدكتور عادل أبى خطوة يتابع من بـــاب المســـاعدة تجربة يقوم بها أحد طلبة الدكتوراه، وكان هناك جزء من التجربة يتضمن تربية أنواع من الفطريات فى المعمل، وجد أن الفطـــر الذى يتربى على بيئة عصير الطماطم لا ينمـــو وســـرعان مـــا يموت، برغم أن عصير الطماطم من أكثر البيئات المغذية للفطر وأفضلها فى التربية!

أعاد التجربة عدة مرات وفى كل مرة يموت الفطر الذى ينمـــو على بيئة الطماطم دون غيرها، من البيئات المغذية التى تستخدم فى التربية، مما أثار حيرته، وبرغم أنه كان يقوم بالتجربة لمجرد التسلية وشغل نفسه فى مساعدة الباحثين الشبان، بدلاً من جلوسه معظم الوقت على المكتب بلا عمل! فإنه قرر ألا يمر الأمر هكذا ببساطة، مجرد فشل إجرائى فى تجربة من التجارب.

أخذ كمية من عصير الطماطم وطلب تحليلها، ومعرفـــة جميـــع العناصر الداخلة فى تركيبها ونسب هـــذه العناصـــر، وبـــرغم صعوبة التحليل وتكلفته، إذ يتطلب إرسال العينـــة إلـــى معمـــل متخصص فى فحص العينات باستخدام أجهزة حديثة مكلفة مادياً، فإنهم استجابوا لطلبه، لتأتى النتيجة مذهلة؟!

كانت كمية المبيدات السامة فى العينة كبيرة إلى الحد الذى جعل العصير يعمل كمبيد فطرى ويقتل الفطر بدلاً من أن يغذيه! بما لا يدع مجالاً للشك أن الثمار المستخدمة سامة بدورها وخطرة على صحة الإنسان؟! كانوا يأتون بالطماطم من السوق، يشترونها لإجراء التجارب كما يشتريها الناس ليأكلوها ويصنعوا منها العصير والصلصة!

– يا خبر أسود.. يعنى فى هذه البلد الناس عندما تأكل طبق سلاطة، تصاب بالتسمم.

– إنهم الفلاحون الذين يسرفون فى استخدام المبيدات بجهل وعدم إدارك لخطورتها.

– هذه كارثة بكل المقاييس.

– طبعاً.. وإلا من أين تأتى هذه النسب المرتفعة لأمراض السرطان والفشل الكلوى وغيرها.

– من المؤكد أن محصول الطماطم ليس هو الوحيد الذى يعامل هذه المعاملة الإجرامية بالمبيدات.

– تقريباً جميع أنواع الخضروات تُرش بكثافة بأنواع متعددة من المبيدات السامة، وبشكل متوالى وغزير، حتى يتسرب المبيد إلى عصارة الثمار ويصبح جزءاً منها؟!

– هذا عبث.. كيف تسكتون على مثل هذه الجريمة؟

– وما الذى نستطيع فعله؟ تجارة المبيدات ومكاسبها الضخمة من ناحية، وجهل المزارعين بالخطر من ناحية أخرى، ثم انتشار الآفات التى تفتك بالمحاصيل بكافة أنواعها من ناحية ثالثة...

– لكن هذا من صميم عمل المركز.. توعية المزارعين وإرشادهم لكيفية التعامل الآمن مع المواد الكيماوية!

– نحن نبذل ما فى وسعنا.. لكن من يسمع؟ هذا الحد الآمن يعنى أن يعامل النبات مرة كل ثلاثة أسابيع بالمبيد على أقصى حد، لكنهم هنا يرشون النبات مرة أو مرتين فى الأسبوع الواحد؟!

– هكذا.. كيف يأكل الناس هذه المحاصيل المسمومة؟

– الأمر لا يقتصر على هذا، المشكلة الأكبر فى استيراد المبيدات المحظورة دولياً، فعندما يتبين خطورة مبيد ما على الصحة العامة للإنسان والحيوان الزراعى كالماشية والأغنام، يصدر قرار بمنع استخدامه، فى الدول المتقدمة طبعاً.

– نعم.. هذا معروف، وهناك قائمة بأسماء هذه المبيدات وأنواعها، تصدر فى نشرة سنوية توزع على جميع دول العالم.

– دول العالم شىء وهنا شىء آخر، فمخازن المصانع المنتجة تكون مازالت مكدسة بالمنتج، وعوضاً عن إعدام الكميات الموجودة فى المخازن، تقوم هذه الشركات بتصدير هذه المواد السامة لبلدنا والبلاد المشابهة لها؟!

– لكن هذا مُجرم دولياً، هذه تجارة مُحرمة!

– نعم.. مُحرمة، لكنها تمر عبر شبكات ودهاليز العلاقات السرية للمسئولين الكبار.

– لكن القائمة السنوية للمبيدات الممنوعة علنية ويمكن للجميع الاطلاع عليها، ومعرفة الأنواع التى تم حظرها وعدم التعامل معها.

– ليس هنا!!

– كيف.. ماذا يعنى هذا؟

– هنا يتم حجبها بواسطة المسئولين الكبار، ويصبح ما بها سر من الأسرار العليا لا يجوز الاطلاع عليه؟

– هههههه أنتم تمزحون ولا شك!

– ليته كان مزاحاً يا دكتور.

– لم أكن أتصور أن الأحوال هنا تردت إلى هذا الحد المخزى!

– ولا أحد منا كان يعتقد أنه سيعيش ليرى هذه الأيام البائسة.

– تعرفون كل هذا وتسكتون؟!

– الكلام لا يفيد.. ولا يُغير شيئاً هنا.

– وهؤلاء الناس الذين يأكلون هذه الأغذية المسمومة التى تُباع فى الأسواق.. ما ذنبهم؟

– ذنبهم الوحيد أنهم مواطنون فى هذا البلد؟!!

***

obeikandl.com

لم يسكت الدكتور عادل، أخذ تقرير المعمل وقدمه إلى جميع المسئولين الذين استطاع الوصول إليهم، أو الذين سمحوا له بمقابلتهم، تكلم كلاماً كثيراً واستفاض فى الشرح مستعيناً بكل ما يملكه من علم وخبرة، تكلم بثقة عالم متخصص، وأحد أكبر علماء الميكروبيولوجى على مستوى العالم.

قابلوه باحترام بالغ ليس فقط لمكانته العلمية ولكن أيضاً لمظهره الفخم الذى يفاجئون به عند دخوله، فالمعتاد فى هذا النوع من المقابلات أن يدخل عليهم رجل، يعطى هذا الانطباع الفورى البائس بأنه موظف حكومى مهما كانت درجة عنايته بمظهره!

أما الدكتور عادل فرجل أنيق للغاية يرتدى ملابس غالية من ماركات مشهورة لكن فى بساطة وبلا تكلف، من يره للمرة الأولى يُحس بأنه أمام إنسان متميز، معتدل القوام متناسق الجسد أميل إلى الطول له وسامة نجوم السينما وحضورهم، شعره أسود مصفف بعناية تتخلله شعرات بيض عند الجانبين وشارب مشذب أنيق، يشبه إلى حد كبير نجم السينما الشهير وفتاها الأول خلال عقد الأربعينيات، بالإضافة إلى هذا كان عطره النفاذ يحيطه بعبق يملأ غرفة المكتب فور دخوله.

فى النهاية كان الدكتور عادل شكلاً وموضوعاً يجبر من يتعامل معه على احترامه وتقديره.

قدموا له الشاى والقهوة والمشروبات الباردة، سمح له كل منهم بنصف ساعة من وقته الثمين ليعرض الموضوع الذى طلب المقابلة من أجله، معظمهم تعامل معه كأنه أتى لأمر شخصى، مسألة الوطن ومصلحة البلد وصحة المواطنين وخطر التلوث الكيماوى وتأثيرها على انتشار الأمراض... بدت شيئاً يدعو للابتسام غالباً وللضحك أحياناً!

البعض كان يحول الموضوع إلى مداعبة، ويتحدث عن صحة الناس الجبارة فى هذا البلد وقدرتهم العجيبة على هضم أى شىء بما فى ذلك الحجارة والحديد، والآخر يدعى الحكمة قائلاً إن هذه مبالغة وتضخيم لا أساس لها على أرض الواقع وكل شىء هنا يسير على ما يرام ولا أحد من الناس يشتكى، وهناك من يتفلسف بأن نظام الحياة المترف الذى عاشه الدكتور فى أمريكا جعله غير واقعى فى التعامل مع طبيعة البشر هنا، وأن مستويات الصحة العامة للمواطنين وطرق تقييمها لابد أن تختلف من بلد إلى آخر، وهناك ممن لهم صلة ما بالأجهزة الأمنية، أو الذين وصلوا إلى مناصبهم بحكم ارتباطهم بالحزب الحاكم، حذروا الدكتور بلطف وبلهجة ودودة، إن إثارة هذا الموضوع تخلق القلاقل بين المواطنين وتتسبب فى مشاكل بين الناس لا داعى لها، هذا موضوع تطير فيه رقاب يا دكتور؟!

لكنهم جميعاً ودعوا الدكتور "عادل" فى نهاية اللقاء وهم يطيبون خاطره، ويطلبون منه ألا يقلق أو يشغل باله بهذه الأشياء البسيطة!

يا لكم من ظلمة..! مجرد مجموعة من التافهين، رجال صغار لا يملكون الكفاءة، فى مناصب ضخمة لا يستحقونها؟!

لكن فضول العلم وحب الاستطلاع الذى يميز العالم ويدفعه للبحث كان قد تملك الدكتور "عادل"، فقرر ألا يتوقف عند هذه التجربة الأولية برغم ما لاقاه من إحباط، وبدأ الإعداد لعمل بحث مطول عن أصناف الفاكهة والخضروات، ونسبة تلوثها بالمواد الكيماوية والعناصر المعدنية الخارجة عن التركيب الطبيعى للنبات.

وضع على رأس الجدول الثمار الغضة التى لها قشرة رقيقة تسمح بتسرب المبيد داخل أنسجتها، وبعدها الأكثر صلابة وقوة تباعاً، حسب التصنيف العالمى الذى يضم جميع العائلات النباتية وأجناسها المختلفة، وحرص على تنويع مصدر العينات، فجمعها من محافظات متعددة ليقارن مستوى التلوث بين الأماكن المختلفة بالنسبة للصنف الواحد.

انهمك فى البحث وتفرغ له فى سرية، كان قد أدرك أنه لن يجد أى تعاون من زملائه أو غيرهم من المديرين والمسئولين فى المركز، فحرص على كتمان مشروعه البحثى عن الجميع، أنفق

على البحث من ماله الخاص مستغلاً رصيده الكبير فى البنك الذى جمعه عبر سنوات العمل فى أمريكا.

***

وضع جدولاً للسفر إلى المدن والمحافظات محدداً باليوم والتاريخ، يخرج فى الصباح الباكر بعد شروق الشمس بساعة ليسافر بسيارته، يتحمل عناء القيادة وهو يسير بحذر على الطرق المزدحمة وسط رعونة السائقين واستهتارهم بقوانين المرور التى يحرص على التقيد بها واتباعها بكل دقة، مما كان يجعله يتلقى سيلاً لا ينتهى من الشتائم وكلمات التوبيخ والكلاكسات الغاضبة، من سائقى النقل بأنواعه المختلفة الخفيف والثقيل والوسط، وسيارات الأجرة والميكروباص.

– إنهم عربجية هذا الزمن!

يحدث نفسه وهم يمرون به ويكادون يلامسون سيارته بعرباتهم، أما أصحاب السيارات الخاصة فلم يختلفوا فى رعونتهم ومخالفتهم للقوانين عن سائقى النقل والأجرة فى كثير أو قليل، يقودون بشراسة ملحوظة وهم متوترون وفى حالة غيظ وبعضهم كان يضغط على الكلاكس بعنف ليجبره على إفساح الطريق، برغم أنه يسير على الجانب الأيمن ويلتزم بالسرعة المقررة على اللوحات الإرشادية، لم يكن حسب رأيه يعطل السير أو يمشى ببطء، لكن الواحد منهم لا يتورع أن يكسر عليك بعنف، ولا يهتم

أن يتسبب لك فى حادثة تصادم قد تقتلك فى سبيل أن يتجاوزك مسرعاً كأن مصير العالم يتوقف على وصوله إلى هدفه التافه طبعاً.. قبل الآخرين؟!

عادل أبو خطوة كما يوحى اسمه من أصول ريفية، لكنه وُلد ونشأ فى العاصمة، وفى فترة طفولته اعتاد الذهاب مع أسرته لزيارة قرية أبيه فى الأعياد، كانوا يسافرون على هذا الطريق الذى يسير عليه الآن، أو بمعنى أكثر وضوحاً طريق يشبه هذا الطريق، لكنه ليس هو!

يحمل الكثير من الذكريات لهذه الأيام التى كان يقضيها بين أهله الطيبين فى ريف القرية الرحب وحقوله الواسعة التى تبث الطمأنينة فى النفس، بقيت هذه الزيارات فى ذاكرته وهو فى سنوات الغربة مع غيرها من ذكريات الصبا والشباب فى الوطن.

أيام سعيدة كان يرى من خلالها بلده وهو بعيد عنها، وعندما اتخذ قرار العودة كان يعتقد انه سيعود إلى ذلك الوطن الذى تركه منذ سنوات بعيدة والذى بقى فى خياله كما هو لا يتغير، بلد طيب يتسم أهله بالوداعة وحب الحياة، طبيعتهم مسالمة تخلو من العدوانية وتميل إلى المرح، لو حدثت مشكلة لأحدهم فى الطريق يجد الجميع يتوقفون ليساعدوه!

أين ذهب هؤلاء الناس؟ لا يرى لهم وجود الآن! كيف اختفى هذا الشعب الذى نشأ فيه؟ وكيف تغير الوطن إلى هذا الحد؟ ومن أين

أتى هؤلاء الظلمة الذين يزاحمونه الآن؟ وكيف انتشروا بهذه السرعة خلال العشرين سنة الماضية فقط، يرى ويتعامل مع أنماط بشرية لم يكن لها وجود من قبل فى هذا البلد! لعلها نقمة الحصول – عن استحقاق – على المرتبة الأولى كأعلى معدل خصوبة جنسية فى العالم! انتجت كل هذا الزحام المهول..

قناعته تزداد يوماً بعد يوم بأنه عاد إلى بلد آخر غير الذى تركه! بلد يشعر بالغربة فيه ولا يستطيع أن يتآلف مع أهله، من الذى تغير؟ هو أم الوطن؟! أقاربه وأصدقاؤه وزملاؤه فى العمل ليسوا هم الذين عرفهم من قبل، حتى الأرض لم تعد هى نفس الأرض، الشوارع والبيوت والميادين اختلفت.. تشوهت! العاصمة تلك المدينة الجميلة التى غادرها وهى منسقة تُشع بالذوق والجمال وتتميز بالسكينة والوداعة، لم تعد ثمة صلة تربطها بهذه العاصمة الشرسة التى ضاقت بأهلها وضاقوا هم بها، وأصبحت تنافس بجدارة على لقب أقبح مدينة فى العالم، كما يقرأ فى الصحف العالمية التى تنشر إحصائيات تضع هذه المدينة فى أسوأ منزلة بجداول المقارنة مع غيرها من المدن، انتشار الأمراض، سوء التخطيط العمرانى، مستوى الصحة العامة، النظافة، معدل حوادث الطرق، انتشار الجريمة والفساد، كان يظن عندما يقرأ هذه التحقيقات وهو فى أمريكا أنهم يبالغون أو غير منصفين مع

مدينته على أقل تقدير، لقد أصبحوا يحذرون مواطنيهم من السفر إليها فى السنوات الأخيرة باعتبارها مدينة غير آمنة؟!

يدرك أن أبناءه الثلاثة يعانون، لا يكفون عن المقارنة بين ما كانوا فيه وما أصبحوا عليه، هل سنعيش هنا إلى نهاية عمرنا؟ سألته ابنته الصغرى فى أحد الأيام، فنظر إليها وسكت..

مداخل المدن كارثة أخرى.. يبطئ السير فيها إلى حد التوقف، كميات هائلة من الزبالة تتراص على جانبى الطريق، لماذا يضعون الزبالة هنا؟ وكيف ينتجون هذه الكميات الضخمة من النفايات ثم لا يستطيعون التخلص منها، فيلقونها هكذا لتتحلل فى الهواء وتترك هذه الرائحة البشعة معلقة فى الجو؟!

يصل إلى عمق المدخل الضيق وهو ينزلق بصعوبة، يسمع أصوات الزعيق والصياح، أعداد لا حصر لها من البشر، باعة جائلون يفترشون أرض الشارع ولا يتركون سوى مساحة تكفى بالكاد لمرور سيارة واحدة، طابور طويل يستغرق وقتاً طويلاً ليتجاوزه.

بعد كفاح مرير يدخل المدينة الريفية ويسير فى شوارعها الضيقة وهو يسأل عن السوق، حتى يصل فى نهاية الأمر، وبطلوع الروح يجد مكاناً لسيارته قرب السوق، يكاد يقفز بعد أن يفتح بابها ليفرد جسمه الذى تيبس على الكرسى بسبب القيادة المجهدة.

يشعر بحاجته إلى كوب من الشاى الساخن بعد هـذا المشـوار، يتفحص بعينيه المقاهى الكثيرة المنتشرة حول الميدان، ينتقى منها أكثرها نظافة وهدوءاً ويتجه إليه، ينظر مندهشاً إلى رواد المقهى وهم يدخنون الشيشة باستغراق ونهم، الشبان هم الأكثريـة بـين الرواد، معظم المدخنين منهم!

وهو شاب كانت الشيشة قد انقرضت تقريباً أو أوشـكت علـى الانقراض، ولم يكن يدخنها إلا بعض كبار السن ممـن اعتـادوا عليها منذ شبابهم البعيد، وكان يقال إنها ستصبح مـن مقتنيـات المتاحف قريباً، لكنها عادت بقوة برغم أنها عادة مذمومة حسبما يرى، وانتشرت بين الناس انتشاراً هائلاً أدى بدوره لزيادة أعداد المقاهى بشكل ملحوظ! حسب ما سمعه من الناس أن إنشاء مقهى يعد من المشروعات الناجحة التى تدر دخلاً كبيـراً الآن، وهـو يحدث على حساب غيره من المشـروعات، المقهـى مشـروع استهلاكى بحت، يقدم بعض الترفيه والتسـلية لـرواده مقابـل استهلاك وقتهم ونقودهم فيما لا يُفيد، المشكلة فى أسلوب التفكير عند الناس الذى أصبح يتجه نحو الاستهلاك لا الإنتاج، إلى العمل السهل الذى يدر ربحاً فورياً ومباشراً، بدلاً من العمل الإنتـاجى الذى يحتاج لجهد أكبر ولفترة زمنية قد تطول قبل أن يحقق العائد المادى المطلوب.

بعد أن ينتهى من الشاى يغادر المقهى متجهاً إلى سوق الخضر والفاكهة وما حوله من محلات تتوزع عشوائياً فى الدائرة المحيطة به، يتفحص الثمار وهى موضوعة فى أقفاصها أو مرصوصة فى أكوام، الكميات المطلوبة للتجربة من كل صنف محددة فى عقله بدقة، ينتقى ما يريده دون أن يعبأ بكلام البائعين وثرثرتهم الساذجة وهم يعرضون عليه بضاعتهم محاولين إغراءه بشراء كميات أكبر على اعتبار أنه رجل أفندى من السهل الضحك عليه، يدفع ما يطلبونه بلا مساومة ويحمل الأكياس ليمشى بها إلى حيث تقف سيارته، بعد عدة مشاوير يملأ شنطة السيارة الخلفية بأكياس العينات، ويرجع بها مباشرة إلى المعمل، يرقمها ويصنفها ويضعها فى ثلاجة العينات وهو مطمئن أن لا أحد من الزملاء سيسأله عن هذه العينات أو يهتم بوجودها، فكل منهم مشغول بنفسه وبأعبائه وعالمه الخاص.

لكن وبرغم كل الاحتياطات والسرية التى فرضها على عمله، وبرغم أن اعتقاده عن انشغال زملائه ولامبالاتهم كان صحيحاً، إلا أن بعض العيون كانت تراقبه وترصد ما يقوم به وتتابع خطواته دون أن يشعر؟!

من خلال خبرته فى التعامل مع المسئولين، اضطر لاتخاذ طريق مراوغ، فجعل موضوع البحث عن مقاومة الثمار للتلوث حسب

صلابة القشرة الخارجية وقوة الأنسجة الداخلية، بدلاً من تأثير استخدام المبيدات على مستوى السمية فى الثمار.

النتائج جاءت مفزعة، مستوى التلوث يفوق المعدلات المسموح بها حسب تقارير هيئات الصحة العالمية بأضعاف كثيرة، العناصر السامة بجميع أنواعها موجودة فى ثمار الخضروات والفاكهة بنسب عالية.. المدهش ليس فقط وجود هذه العناصر لكن أيضاً المواد الناتجة عن استعمال الأسمدة المعدنية كذلك، إنهم يسرفون فى استخدامها وبكميات كبيرة لا تسمح للنبات بهضمها فتتراكم فى الثمار، وبرغم أن هذه العناصر غير ضارة فى الأصل لكن وجودها بهذه النسب المرتفعة الشاذة عن طبيعة النبات، يحولها هى أيضاً إلى عناصر مضرة بالصحة!

***

انتهى من البحث بعد شهور من العمل، لم يكره عملاً قام به فى حياته كما كره هذا البحث بنتائجه الكارثية، أعاد قراءته بتمعن بعد أن انتهى من كتابته ووجد نفسه غير متحمس لنشره، برغم اعتقاده الجازم بأن معرفة الحقيقة ومواجهتها أفضل من التجاهل وترك الأمور تسير نحو الأسوأ، لكنه شعر بعقليته العملية ومن خلال ما مر به، بل أصبح على يقين، أنهم سيتهمونه بالتلاعب وتزوير النتائج لإثارة الرأى العام أو بغرض الشهرة، ولن يكون

مستبعداً أن يقوموا هم بعمل بحث مشابه يزورون فيه النتائج وينشرونه على الناس ليبشروهم بأن الأمور على ما يرام!

على كل حال البحث بالنسبة له لا يمثل قيمة علمية كبيرة، ولا يضيف شيئاً فهو بحث استقصائى، مجرد جمع نتائج وترتيبها ومقارنتها بالمعدلات القياسية، شغل إحصاء وحسابات كما أنه من الناحية العلمية بعيد عن تخصصه فى علم الكائنات الدقيقة، ويميل ناحية علم المبيدات وتأثيرها على البيئة، ويقترب من علم التكسوكولوجى المتخصص فى دراسة أثر السميات على الكائنات الحية.

الأمر هنا ليس متعلقاً فقط بالعلم لكنه يدخل فى منطقة أو مناطق أخرى، تمس واقعاً اجتماعياً وتؤثر على الرأى العام وتقترب كثيراً من الشأن السياسى وعمل الحكومة، التى تهمل فى صحة مواطنيها إلى هذا الحد الشنيع! هذا البحث أو هذه النتائج التى كشف عنها الستار قضية تهم الإعلام والصحافة فى الدرجة الأولى، لكن هل يوجد هنا صحافة حقيقية؟ هل توجد قضايا رأى عام فى الدول المتأخرة؟ أو هل يوجد رأى عام أصلاً فى دولة تترنح تحت وطأة الجهل والأمية والفقر؟! قيمة الرأى العام وتأثيره على موظفى الدولة الكبار تظهر عندما يحين موعد الانتخابات.. هاهاها هذه كلمة نسيها الناس هنا منذ زمن طويل، ربما لم يعودوا يعرفون معناها!!

يدرك بشكل غير مباشر أنه لن يجد عوناً من أحد، حتى وهو يدافع عن مصالحهم وصحتهم وصحة أولادهم بهذا العمل..

سوف أتحول إلى دون كيشوت، هذا الرجل المريض المختل العقل الذى انفصل عن الواقع وعاش فى عالم من نسج خياله، وخرج من بيته إلى العالم الحقيقى وهو لا يراه ولا يعرفه، ليبحث عن بطولات وأمجاد وهمية بقيم وأخلاقيات اندثرت من مجتمعه وعفى عليها الزمن، فأثار سخرية الناس واستهزاءهم وتحول إلى أضحوكة...

لكن هل أنا الذى أعيش منفصلاً عن الواقع أم هم؟ هل أنا الذى أعانى من خلل فى القيم أم هم؟ من الذى يزور الحقائق ويتجاهل المشاكل ويدعى أنها غير موجودة، وينام على فراش الجهل والكسل ويترك الأزمات الصغيرة لتتفاقم حتى تتحول إلى كوارث؟! ما أصعب أن تكون مبصراً فى بلد العميان، ما أصعب أن تكون عاقلاً فى بلد كل رجاله إلا قليلاً كدون كيشوت!

***

وهو منهمك فى التفكير ومنشغل البال بمصير البحث المشكلة، لاحظ الدكتور عادل شيئاً فشيئاً الحركة المريبة التى تحدث فى القسم مع الباحثين الشبان، شعر بشىء غير مريح يدور حوله، كلام غامض وتلميحات وعبارات غير مفهومة بالنسبة له، همس

وتواطؤ بينهم وحرص على إخفاء حقيقة ما يحدث عليه هو تحديداً؟!

لكنه أخذ يدرك مع مرور الأيام ومن خلال متابعته الصامتة للتجارب التى يقوم بها طلبة الماجستير والدكتوراه، أن هناك أموراً غير سليمة تمس البحث العلمى، الذى أعطاه عمره وعمل فى مجاله بإخلاص على مدى سنوات عمله..

التجارب لا تتم كما ينبغى، يوجد بها شىء من التلفيق وربما الغش، ليس هذا فحسب بل هناك عمليات سرقة للأبحاث السابقة تجرى على قدم وساق، يشارك فيها الجميع؟! إما مشاركة فعلية، أو سلبية بالصمت والتجاهل!

عمليات منظمة وبدا أمامه أن لها قوانينها الخاصة، أصبحت فى حكم العرف ولم يعد أحد يقدر على التصدى لتيارها الجارف، تزوير للرسائل العلمية ولأبحاث الترقى أيضاً..

الجميع يسعى بكل الوسائل لاستكمال متطلبات الوظيفة ظاهرياً، الدرجة الوظيفية وما تعنيه من زيادة الراتب هى الهدف الرئيسى، أما العمل البحثى الذى أنشئ المركز من أجله، فلم يعد يهم؟! فجميع الرسائل والأبحاث مصيرها فى النهاية إلى رفوف المكتبات المنسية، تُوضع عليها ليعلوها الغبار، ويتساوى على الرف من عمل بجد وإخلاص وقدم بحثاً حقيقياً مع من زور وسرق وزيف النتائج!!

لم يندهش كثيراً كأنه كان يتوقع هذا، ظل على صمته ولم يُظهر ما يدل على معرفته بهذا الأمر من قريب أو بعيد، محاولة التصدى لهذه الانحرافات تقترب كثيراً من الدخول فى معركة مع طواحين الهواء!

***

بعد تفكير وهو يقلب الأمر فى رأسه ليرى التصرف الأفضل فى هذا البحث المشكلة، قرر أن يعرض البحث على صديقه الدكتور ممدوح، بينهما زمالة سنوات طويلة ترجع لبدايات عملهما بالمركز، ممدوح إنسان محترم وعقلانى يستطيع أن يثق فيه وفى رأيه.

لكن قبل أن يفعل، تسلم استدعاءً مفاجئاً من مكتب الرجل الكبير فى الوزارة.

استقبله الرجل بفتور وبوجه متجهم، ورد تحية الصباح باقتضاب، تعامل معه منذ اللحظة الأولى كمجرد مرؤوس لديه، ودون أن يدعوه للجلوس قال وبلهجة باردة.

– ما هذه المشاكل التى تثيرها فى الوزارة يا دكتور أبووو...، نظر فى الأوراق الموجودة أمامه على المكتب، ثم أكمل... خطوة.

– أى مشاكل يا فندم؟

رد أبو خطوة بلهجة مستنكرة تحمل رنة ساخرة لم تخف على

الرجل، الذى بدا بوجهه المنتفخ وعينيه المتورمة الجفنين أكثر شيخوخة مما يبدو فى وسائل الإعلام.

– أنت متخصص فى الميكروبيولوجى، مالك أنت وشغل المبيدات ومعاملات التلوث البيئى، لماذا لا تلتزم بعملك؟

لأن الدكتور "عادل" لا يسعى للترقية ولا يهتم بالوصول إلى منصب ويعتبر أن راتبه الحكومى نكتة سخيفة تدعو للرثاء، وفى جميع الأحوال ليس لهذا الرجل مهما كان منصبه الحق فى التعامل معه بهذا الاستعلاء فضلاً عن توجيه الإهانات له، كأنهم لا يعلمون أن أساليب القرون الوسطى فى علاقات العمل قد تجاوزها العالم منذ زمن بعيد، بالإضافة إلى أن جنسيته الأمريكية تعطيه الإحساس بالأمان والحماية أمام أى إجراء قد يُتخذ ضده، يستطيع أن يقدم استقالته فى أى لحظة دون خشية على مستقبل أو وظيفة أو معاش، يعلم أن لديهم الكثير من طرق العقاب المباشر وغير المباشر، وكذلك أساليب متعددة للتنكيل والقمع، أبسطها أن يتم نقله إلى مديرية من المديريات البعيدة بمجرد كلمة ينطقها هذا الرجل.. الذى يبدو أمامه الآن صغيراً بشكل يدعو للرثاء.. لكنه لا يأبه بكل هذه الأساليب ويراها رخيصة وغير لائقة، خاصة فى التعامل مع الباحثين والعلماء، الذين يقوم عملهم فى الدرجة الأولى على الابتكار والتفكير الحر الذى يعتمد فى المقام الأول على شعور الباحث بالحرية وتمتعه بها.

تقدم بثبات وثقة يليقان بمركزه العلمى وبمظهره الفخم الذى يعلم مدى تأثيره على الناس، وجلس على الكرسى المواجه للمكتب ونظر إلى وجه الرجل الكبير مباشرة.

– ما هو المطلوب منى بالضبط؟ ولماذا تم استدعائى لمكتب سيادتك؟

ظهر الامتعاض على وجه الرجل الكبير كأنه فوجئ بتصرف الدكتور عادل وتجرئه، لكنه رد بهدوء وهو يضغط على كل كلمة يقولها.

– المطلوب أن تلتزم بعملك.. لا أكثر.

– مجال البحث العلمى مفتوح وغير مقيد، وهذا البحث فى قياس مستوى السمية لا يبتعد كثيراُ عن تخصصى، كما أنه من وجهة نظرى ضرورى جداً ويتعلق بصحة المواطنين فى هذا البلد..

قاطعه الرجل الكبير بنفاد صبر.

– صحة المواطنين لا تعنيك فى شىء، هذا عمل الحكومة لا عملك!

– وأنا أتفق مع سيادتك أن هذا عمل الحكومة، لكنى فقط أقوم بواجبى وألفت نظر الحكومة كمواطن أو كموظف لدى هذه الحكومة، إلى خطورة هذه المشكلة لتهتم بها وتتعامل معها بما يليق، حفاظاً على صحة المواطنين فى هذا البلد.

– لأ.. هذه شوشرة وإثارة للقلق بلا داع، الحكومة لـديها مـن المشاكل ما يكفيها ولسنا بحاجة للمزيد، الناس يأكلون ويشـربون ولا يعانون من أى مشاكل صحية.. لابد أن تفهم هذا!!

–... لكن نسبة الأمراض المتعلقة بالتلوث عالية بالفعل بينهم!

– هذه ليست مشكلتك ولا مشكلة الـوزارة هنـا، هنـاك وزارة مختصة بالصحة وعلاج أمراض المواطنين، ولا شأن لنا بعملهم!

– هناك جانب من المسئولية يقع علينا يا فندم، ويتعلـق بجـزء أساسى من عملنا فى المركز، يرتبط بالمحاصيل الزراعية التـى يتغذى عليها الناس، وعندما تكون هذه المحاصيل ملوثة، فأهـل هذه البلد يدفعون الثمن فى النهاية.

– الناس تموت.. تغور فى داهية؟! ليست مشكلتنا، نحن لا نريد شوشرة وشائعات تملأ البلد تخرج من عندنا، هذا سـوف يفـتح علينا أبواب جهنم، وسوف تطير فيه رقاب.. هل تفهم؟ تطير فيه رقاب!!

إتفووه عليك وعلى من عَينك فى هذا المنصـب، رجـل نـذل وخسيس.. لم يتمالك نفسه وهو خارج من المكتب بعـد انتهـاء المقابلة بشكل رآه مهيناً، ثم ما موضوع الرقاب الطائرة وأبواب جهنم بالضبط؟ يسمع هذه الكلمة التحذيرية الساذجة فى كل مكان بالوزارة تقريباً!!

10

وصل المهندس كمال وبرفقته أعضاء اللجنة إلى المنطقة الرئيسية فى المزرعة، والتى تعطى هذا المكان أهميته، وبسببها يلقى العناية من كبار المسئولين، تجاوزوا المنطقة الأولى بأشجارها العتيقة وبساتينها القديمة وبلغوا الطريق الداخلى الذى يقسم المزرعة من الداخل، امتدت أمامهم مساحة شاسعة تصل إلى مائة فدان، تمثل مزرعة نموذجية تُزرع فيها جميع أنواع الخضر بطرق الزراعة الحيوية، حيث لا تستخدم الكيماويات مطلقاً سواء فى التسميد أو مكافحة الآفات.

بعد أن اجتازوا الطريق الفاصل بين المنطقتين ودخلوا إلى الحقول ذات المحاصيل الطبيعية، وجدوا جيشاً من العمال يتوزع أفراده فى كل مكان، ومعهم عدد من المهندسين يشرفون على عملهم.

هناك عدد من الفتيات بجلابيبهن الملونة فى أحد الحقول، ينتشرن بين خطوط الزرع ومعهن سلال من الخوص، ينحنين على أعواد النبات ليقطفن القرون الناضجة ويضعنها فى سلالهن، ثم يعدن ليفرغنها بعد أن تمتلئ فى أكوام على مفرش كبير عند رأس الحقل، يجلس حوله مجموعة من الرجال يقومون بفرز قرون الخضراء وتعبئتها فى صناديق من الكرتون.

لا تستخدم هنا البذور المهجنة وراثياً أو الأصناف المستنبطة بالهندسة الوراثية، فعلم الجينات ليس له مكان فى مزارع المحاصيل الحيوية، جميع المعاملات تتم بالطرق الطبيعية، يُستخدم السماد البلدى المصنوع من روث الماشية والأغنام والدواجن فى التغذية، يضاف عليه جميع المخلفات النباتية التى توجد فى الحقل بعد الحصاد، من أوراق نباتية وأغصان وسيقان، تُوضع جميعها فى حفرة واسعة وتُغطى بمشمع ثقيل لا يسمح بدخول الهواء لعدة أسابيع، فيما يُسمى بعملية الكمر، حيث تتولد حرارة عالية بفعل العمليات الحيوية بين هذه المكونات، تقتل بذور الحشائش الضارة وبيض الآفات الحشرية ويرقاتها، بعدها يتحول المخلوط إلى سماد طبيعى نقى بلا رائحة يشبه البودرة السوداء الغنية بالعناصر المغذية للنبات.

اتجه المهندس كمال إلى استراحة أنيقة تُطل على الحقول تعود إلى زمن الأميرة، قائلاً لضيوفه، نرتاح هنا لبعض الوقت بعد هذا المشوار، نشرب الشاى ثم نُكمل جولتنا.

رحب أعضاء اللجنة بالدعوة، دخلوا إلى مبنى الاستراحة الفخم، لكنهم وجدوا الأثاث الحكومى الرخيص من مكاتب وكراسى كالعادة متناقضاً مع ثراء المبنى، كالنغمة النشاز التى دخلت على لحن جميل فأفسدته، جلسوا فى الشرفة الواسعة يشربون الشاى ويدخنون سجائرهم، كان الشاب الثلاثينى الحاصل على درجة

الدكتوراه منذ فترة وجيزة أسعد الجميع بهذه الجلسة المنعشة، هذه المأمورية لها طابع خاص مختلف عما عهده فـــى المأموريـــات الاعتيادية التى قام بها خلال سنوات عمله فى المركز، لكن هـــذا لم يمنع ما جال فى خاطره من أسى مشوب بالغضب، فيما يخص الإشاعات التى يهمس بها الناس فى المركز عن هذه المزرعـــة ومحاصيلها الصحية!

على البعد لاحت حظائر المواشى وعنابر تربية الدجاج والطيور، أبنية حديثة الطراز بيضاء اللون تتغذى فيها الحيوانـــات علـــى أغذية نباتية طبيعية، ولا تقدم لها أى أعلاف صناعية من تلـــك التى تحتوى على مساحيق العظم والسمك وغيرها مـــن المـــواد الحيوانية التى تفسد طعم اللحوم وتُفقـــدها مـــذاقها الطبيعـــى، أو الهرمونات التى تُزيد وزن الماشية والدواجن وتقلل القيمة الغذائية للحومها وتجعل من يتناولها عرضة لمجموعـــة متنوعـــة مـــن الأمراض!

بجوار الحظائر يوجد معمل لمنتجات الألبان، يعمل بمعايير تفوق معايير الجودة العالمية وتخرج منتجاته خالية تماماً من أى أثـــر للكيماويات الضارة بالصحة!

سرح الدكتور ممدوح وهو يدخن سيجارته ويتأمل بساط الخضرة الممتد أمامه، فى المناقشة التى جرت بينه وبين الدكتور عـــادل منذ أيام قليلة..

بعد أن قرأ البحث واطلع على النتائج ورأى المقارنة بينها وبين المعدلات العالمية المسموح بها، صمت قليلاً، البحث فى مجمله وما يحتويه من بيانات لم يمثل له مفاجأة، فهم يعرفون بحكم تخصصهم أن معدلات التلوث مرتفعة فى جميع المحاصيل الزراعية، والدولة بدورها تعرف ولا تتحرك بأى إجراء يحد من هذا الوضع، لكن برغم هذا ونظراً لدقة الدكتور عادل فى عرض البيانات وإشارته فى نهاية البحث إلى الأمراض التى تسببها هذه المواد، وتأثيرها على الصحة العامة للمواطنين، بدا البحث مفزعاً.

نظر إلى صديقه متحيراً وقال.

– ما الذى تفكر فيه يا دكتور؟ طبعاً كلانا يعرف أن هذا البحث لن يضيف لك شيئاً من الناحية العلمية.

– هذا بحث تطبيقى، نستفيد من خبرتنا العلمية فى تقديم هذا المعلومات للناس، حتى ينتبهوا أو يعرفوا فيتخذوا حذرهم، ولذوى الشأن ممن بيدهم اتخاذ القرار حتى يؤدوا واجبهم.

– لا تكن حالماً بهذا الشكل يا دكتور، الأمور هنا تدار بشكل مختلف عما يحدث فى الدول المتقدمة التى عشت فيها.

– تقصد بشكل أسوأ.

– أسوأ بكثير مما تتصور!

– أنا أفهمك، لكن ألا نلقى بحجر فى هذه المياه الراكدة...

انتبه الدكتور ممدوح وتوقف عند هذه الجملة كأنه يسمعها لأول مرة، نعم لمَ لا؟ وماذا يمكن لهم أن يفعلوا معنا؟

تذكر حماس الشباب الذى دخلوا به الوظيفة عندما بدأوا العمل فى المركز، وكيف أكلت الوظيفة الحكومية هذا الحماس وأفقدتهم مع الأيام روح الابتكار وحرية الرأى، والقدرة على التفكير الحر، هذا الروتين الأحمق وقيود اللوائح والجزاءات التى تجبرهم على الانصياع، وهذا الخوف على المستقبل ومنه الذى تربى بداخلهم، مجرد كلمة تخرج أو رأى يقال فى اجتماع مع أحد كبار المسئولين يخالف رغبة هذا المسئول أو رؤيته الملتوية، يكفى لاتخاذ سلسلة من الجزاءات التعسفية..

مسك الموظف من لقمة عيشه وتهديده بها، فن يجيده المسئولون جميعهم، يعزفون باقتدار على الأوتار التى تلتف حول رقبة موظفيهم، وقف الترقية والإبقاء عليه محلك سر حتى يتعفن فى مكانه، الخصم من البدلات والحوافز، النقل إلى مديرية تابعة للوزارة فى إحدى المناطق النائية..

السنوات التى قضاها كضابط خدم فيها بإخلاص حتى خاض الحرب بشجاعة وانتصر، كيف انهزم بعد ذلك فى الحياة المدنية؟ كيف استسلم أمام طغيان الفساد والأوضاع المقلوبة، وهو يرى المركز الذى كان يحتل مرتبة علمية متقدمة على مستوى العالم، يتراجع على أيدى أبناء جيله ويفقد مكانته العلمية كهيئة بحثية

تطبيقية، تُسهم فى الأرتقاء بمستوى الإنتاج الزراعى كماً وكيفاً، جعلته الوظيفة يتخلى عن دوره كباحث وعالم ليصبح مجرد موظف منشغل على الدوام بدوامات الراتب الحكومى وتفريعاته اللانهائية، حوافز وبدلات ولجان ومأموريات، وكل منها مُقسم بدوره إلى شُعب وفروع، من كل ناحية يحصل على مبلغ هو فى النهاية جزء من المرتب، نظام شيطانى يجعل رأس أى موظف يدور ولا يستطيع أن يقف على أرض ثابتة! خاصة وهو يحمل على كتفيه هم البيت والعيال ومصاريفهم ومدارسهم ودروسهم الخصوصية ومطالبهم التى لا تتوقف.. لكن العيال لهم رب كريم، والحياة لن تتوقف فى نهاية الأمر بسبب موقف يكسر به هذا الجمود..

– أنا معك يا دكتور، سأساندك فى هذا الأمر، سألقى معك بحجر فى المياه الراكدة، لكن توقع رد فعل "عنيف" من جانبهم!

– أعرف أنهم ظلمة لا يرون الحق، أو يرونه ويحيدون عنه لأغراض فى نفوسهم! لكن قبل أى شىء لابد أن أخبرك أن الوزير استدعانى إلى مكتبه ودار بيننا حوار حاد وتقريباً هددنى محذراً، هذا وهو لم يعرف بعد بأمر هذا البحث الذى بين يديك الآن..

– وهل تظن يا دكتور أننا لم نعرف بهذا الاستدعاء؟ ما لا تعلمه أنت، أن الكرسى يهتز تحته الآن ووضعه فى الوزارة غير

مستقر، ربما يرحل فى أى لحظة!

– هكذا..! ما يثير دهشتى هو لقب الرجل الكبير الذى يطلقونه عليه فى الوزارة! هذا لقب زعيم عصابة أو تاجر فى سوق لا لقب رجل سياسى!

– هاهاها.. لقد صار له فى هذا المنصب أكثر من عشرين عاماً، حتى أصبح يتعامل مع الوزارة كأنها عزبته الخاصة، تقريباً فقد القدرة على التمييز بين العام والخاص، وهو بالفعل يدير العمل بمنطق رجال العصابات؟!!

***

قام المهندس كمال من كرسيه فى شرفة الاستراحة بعد الشاى، ليقوم بجولة مع أعضاء اللجنة يمرون خلالها على الزراعات، عاوده ألم ضرسه حتى أنه أضطر أن يضع كفه ويضغط على فكه، مازالت أمامه ساعة أخرى حتى ينتهى من هذه الجولة الروتينية، مجرد إشراف على سير العمل ومتابعة للمحاصيل وسلامتها، هنا.. حتى فى حالة وجود إصابة يكتفون بإزالة النباتات المصابة يدوياً دون تدخل علاجى بالكيماويات، كان من السهولة ملاحظة مختلف أنواع المفترسات كحشرات أبى العيد بأنواعه والرعشات وفرس النبى وأسد المن وإبرة العجوز وهى تتقافز على أوراق وأغصان النباتات والشجيرات، أما الطفيليات

كحشرة التريكوجراما التى يصعب رؤيتها بالعين المجردة فموجودة أيضاً وبكثافة.

من الناحية التطبيقية أثبت نظام المكافحة الحيوية نجاحاُ ملحوظاً فى هذه المزرعة، وهو يعتمد على مكافحة الحشرات الضارة التى تهاجم النبات وتتغذى عليه، باستخدام الأعداء الطبيعية لها من الحشرات المفترسة والطفيليات، تُربى هذه الحشرات النافعة فى معامل خاصة ثم يجرى إطلاقها فى فضاء المزرعة لتتكاثر طبيعياً وتتغذى على ما تجده من آفات ضارة.

– هذا منظر يبعث على السرور.

قال الدكتور ممدوح وهو ينحنى بعض الشىء لينظر عن قرب لمجموعة من حشرات أبى العيد، تلمع بلونها البرتقالى تحت أشعة الشمس.

– أحد أخطر مشاكل استعمال المبيدات أنها قضت على هذه الحشرات النافعة، حتى أصبح من النادر رؤيتها فى بلادنا.

– نعم للأسف.

أشار لزميليه قائلاً بابتهاج ملحوظ.

– انظروا وتأملوا هذه الحشرات، فلن تتاح لكما رؤيتها على الطبيعة إلا فى حالات نادرة.

استجاب الرجلان وانحنيا ينظران، بينما ابتسم كمال لهذه الفرحة التى رأى أنها طفولية بعض الشىء من الدكتور ممدوح.

أبدى الدكتور ممدوح اهتماماً كبيراً بالحشرات المفترسة وأسهب فى الكلام عنها وهم يتجولون فى المزرعة، من عجائب الطبيعة أنه عند استخدام المبيدات تتأثر الحشرات النافعة أكثر بكثير من الضارة وتتناقص أعدادها حتى تقارب الانقراض، أما الآفات فتكون أكثر تحملاً وقدرة على المقاومة برغم أن المبيدات توجه إليها أساساً، ولا تلبث أن تخرج أجيال من الآفات لا تتأثر بسمية المبيد مما يستدعى إنتاج أنوع جديدة منه كل فترة زمنية، لكنها فى جميع الأحوال لا تستطيع القضاء على الحشرات الضارة، فقط تقلل كثافة أعدادها وتحد من ضررها نوعاً ما، الغريب أن المفترسات الأقوى فى الطبيعة والتى تستطيع أن تهاجم وتأكل الحشرات الضارة، وكذلك الطفيليات التى تتطفل على الآفات وتضعفها، تكون أكثر حساسية وأضعف بكثير فى مواجهة المبيدات!! يبدو أنه فى الطبيعة كما فى الاقتصاد العملة الرديئة تطرد العملة الجيدة من السوق وتنتصر عليها!

توقف الدكتور ممدوح ليفحص واحدة من مصائد الفرمون أو الجاذبات الجنسية، وتطلع إلى ما بداخلها من ذكور أحد أنواع الحشرات الضارة وهز رأسه قائلاً، إن نظام المكافحة الحيوية يعمل بشكل جيد هنا.

كانوا على مقربة من حقل طماطم قارب على الحصاد، تركهم ونزل بمفرده ومشى بين خطوط الزرع وهو ينظر إلى الثمار

الصحية الخالية تماماً من السموم، هذه الثمار لا تُباع ولا تــرى السوق ولا يعرف أحد من الناس عنها شيئاً، ليس فقط محصــول الطماطم بل كل إنتاج المزرعة؟!

بحث بعينيه ثم انحنى ليقطف ثمرة صغيرة ناضــجة، لــم يكــن بحاجة ليمسحها بأصابعه، حتى التراب هنا نظيف وغير ملــوث، تأملها للحظات وتمعن فى لونها الأحمر الداكن وقشرتها الرقيقــة قبل أن يضعها فى فمه ويتذوقها، مضغها ببطء، يالروعــة هــذا المذاق القديم، هذا الطعم الذى يعود به إلى زمن الطفولة، زمن ما قبل المبيدات، قبل أن يستفحل استخدام هذه الكيماويات سواء فى التغذية أو مكافحة الآفات، إنهم ظلمة لا يرون الحق.. ابتسم وهو يستعيد كلمة الدكتور عادل الذى لا يعلم شيئاً عن هذه المزرعــة ولا عن إنتاجها ومحاصيلها، من بين ملايين البشر الذين تزدحم بهم هذه البلد، هناك عدة عائلات فقط يأكل أفرادهــا مــن هــذه المزرعة؟!

هذا الفرح الذى أبداه منذ قليل شابه الكثير من الأسى، وجوده فى مزرعة نظيفة من التلوث تعتمد على النظام الحيوى فى التغذيــة والمكافحة، ورؤيته للمفترسات بهذه الأعداد الغفيرة وهى تــؤدى عملها بنشاط أدخل السعادة على نفسه لكن...

***

نظر كمال إلى ساعته وهو يقف وسط حقول المزرعة، وفكر فى كرسى الطبيب وحقنة البنج، تمنى لو كان الآن فى عيادة طبيب الأسنان القريبة من منزله الذى يقع فى أحد الأحياء الراقية بالمدينة، نشأ فى هذا الحى وعاش فيه عمره كله، مازال يعيش هو وزوجته وأبناؤه فى شقة أبيه بعقد الإيجار القديم الذى يعطيه حق وراثة الشقة رغم أنف مالك العمارة، لولا ذلك لكان قد أرغم على الانتقال لحى آخر فى المدينة.

كان يتمنى لو أن الحياة كانت أرحب أمامه وأن الوظيفة تعطيه قدرة أكبر على الحركة، مازالت أمه تعيش معهم أو بالأحرى يعيشون هم معها فى شقتها، مائة وعشرون متراً تقريباً تحاصره جدرانها منذ مولده، تزوجت شقيقته الأكبر منه وهو مازال فى الجامعة، بعدها بسنوات توفى والده، وبقى مع أمه حتى تزوج دون أن يمتلك القدرة بسبب وظيفته الحكومية محدودة الدخل على الانتقال إلى سكن جديد وحياة جديدة، كان يود أن يعيشها!

وهو منشغل بتجهيزات الزواج فى فترة الخطوبة، خطر على باله أن أباه لو طال عمره وظل على قيد الحياة، لما أمكنه الزواج أو أن الأمر كان سيستغرق منه سنوات أخرى، لا مهرب له خلالها سوى البحث عن شقة رخيصة فى حارة بأحد الأحياء الشعبية الجديدة، تلك التى أنشئت حديثا كيفما اتفق مع زيادة الكثافة السكانية، وهو ما يعنى خروجه من حيه الراقى مع خطيبته التى

تنتمى لنفس الحى، إلى آفاق الحوارى حيث يظللهما ضنك الحياة وبؤسها، فلا أشجار ولا حدائق ولا شوارع واسعة ولا ميادين يجد الإنسان فيها متنفساً، يعيشان فى مستوى أدنى بإحدى العمارات المتداعية، برغم أنها حديثة البناء، فى شقة من تلك الشقق الضيقة المظلمة التى تطل على الحوارى الخانقة، المكدسة بالزبالة والنفايات البشرية، وأن أولاده سينشأون نشأة أقل بكثير مما نشأ هو عليه، تربية حوارى!!

أزعجته هذه الأفكار وكدرت عليه حياته فى تلك الفترة التى عادة أو من المفترض أن تكون أسعد فترات الحياة، موت أبيه الرجل المحترم الذى لم يبخل عليه بشىء وكان نعم الأب له، كان الحل الوحيد ليتمكن هو من مواصلة حياته!

– إحمد ربنا إنك الابن الوحيد، وأن أباك مات مبكراً؟!

هكذا رد عليه أحد أصدقاء طفولته حانقاً وساخراً فى نفس الوقت، كان قد انتقل منذ فترة وجيزة إلى رحمة الله واستقر مع عروسه فى حارة.

– أنا عايش حياة درجة ثانية أو ثالثة، فاكر أيام الجامعة عندما كنا نسخر من الطلبة القادمين من الأحياء الفقيرة ونترفع عليهم، بيئة وسخة.. أنا الآن أصبحت مثلهم بيئة وسخة، وأولادى كذلك سيكونون مثلهم تربية حوارى، أنت تعرف أن أبويا كان وكيل وزارة، مرتب كبير ومحترم وفر لنا حياة كريمة ونحن صغار،

ليست ثرية لكن كريمة لنا نحن أبنـــاءه الخمســـة، ثلاثـــة أولاد وبنتين.. كما تعرف، وهو مازال حياً ربنـــا يعطيـــه الصـــحة، ساعدنى قدر ما يستطيع، أوجد لى وظيفة باتصالاته ومعارفـــه، ودفع معظم ثمن الشقة، يعنى حتى هذه الشقة الزبالة الستين متر أو الأثنين وستين غالية بالنسبة لظروفنا، أنا أدفع أقساطها بالعافية من مرتبى، لكن فى كل الأحوال أنا نزلت غصباً عنى درجـــات كثيرة وأصبحت من سكان القاع.. أتعود تدريجياً على الرائحـــة، الرائحة هناك كانت الصدمة الأولى، رائحة بشعة ثقيلة تجثم على نفسك طوال الوقت، الناس هناك يقلون الباذنجان والفلفل والسمك الرخيص الزفر طوال اليوم، ورائحة التقليـــة بـــالثوم لا تنقطـــع تقريباً، العمارات هناك لا تعرف البلكونات ولا تســـتطيع فـــتح الشباك فى أى لحظة فبينها وبين شباك جارك أقـــل مـــن متـــر، وستجده فى أى وقت تفتح فيه الشباك جالساً بالفانلة واللباس فـــى مواجهتك، يدخن سيجارة رخيصة وينظر ببجاحة إلى داخل شقتك بحثاً عن جسد زوجتك.. المسكينة فى البداية لـــم تكـــن تتحمـــل وتهاجمها نوبات البكاء عدة مرات فى اليوم، ليس فقـــط بســـبب خنقة الشقة ورائحتها ولكن بســـبب الضـــجيج أيضـــاً، ســـيلان السيارات لا يتوقف فى الشارع العمومى علـــى مـــدار الأربـــع والعشرين ساعة وجميعها تطلق الكلاكسات، المحلات لا تكتفـــى بتشغيل أجهزة التسجيل التى يضعون بها أغانى وموسيقى بذيئة،

بل يوصلونها بميكروفونات لا تتوقف إلا فى الثانيــة أو الثالثــة صباحاً، كل ما يخطر على بالك من أصوات الحنجرة البشــرية بكافة تنويعاتها، كلام، صياح، زعيق، صــراخ، شــتائم، بكــاء الأطفال الرضع، تأتيك بلا توقف على مدى الليل والنهار ومــن جميع الجهات، من أعلى ومن أسفل ومن الشمال واليمين ومــن الشرق والغرب، جحيم يفتت الأعصاب ويصل بك إلى الــبلادة وانعدام الشعور، يجعلك تفقد فى النهاية كل ما لديك من أحاسيس إنسانية؟!!

***

مازالت والدة كمال وهى تقترب من الثمانين تحصل على معاش أبيه التقاعدى كمدير عام سابق، ويشكل هذا المعاش ركناً أساسياً فى دخل أسرته، زملاؤه الحمقى يعتقدون أن راتبه يزيــد عــن رواتبهم بعدة أضعاف! وهذا أمر مضحك وإشاعة تدعو للرثاء.
كمعظم أصدقائه وزملائه فى المدرسة والجيرة من أبناء الحــى الذين ينتمون إلى الشريحة العليا للطبقة الوسطى، يحرص علــى مظهره ويرتدى ملابس أنيقة دوماً، ليست غالية الثمن ولا فاخرة فى أغلب الأحيان لكنها متناسقة وتعطى الانطباع بالوجاهة الذى يكافح للحفاظ عليه، حارب طويلاً وما يزال حتى لا ينحدر إلــى طبقة أقل، وحتى ينجو من المصير الذى لاقاه عدد من أصدقائه، لكنه يشعر برغم ذلك أن الفقر يصعد إليه من الأسفل ويداهمــه،

الفقر يدهس فى طريقه كل قيم الذوق والجمال والنظافة، ويستبدلها بأخلاق القاع والطباع السوقية القادمة معه من أسفل، بينه وبين الفقر مطاردة طويلة بدأت منذ توظفه فى الحكومة بمرتب اشتراكى بينما رأسمالية السوق فى أبشع صورها تسيطر على كل جوانب الحياة حوله!

منذ سنتين عندما ترقى لدرجة مدير زاد مرتبه زيادة كبيرة بسبب ما يحصل عليه من بدلات، وهو ما أعطاه مساحة أوسع ليتنفس فيها بعد حصار ضيق ذات اليد الذى استمر حتى شارف الخمسين من عمره.

طوال هذه السنوات التى عاشها والأحوال فى تدهور مستمر، على مدى عمره وهذا البلد يسير نحو الأسوأ؟ وضع شاذ وضد الطبيعة! الماضى دائماً أجمل، ليس لأننا مرضى بالحنين للماضى ولكن لآن الواقع الصعب المزدحم المكدس بالضجيج والقمامة والفقر، أجبر الناس على أن يفروا من الحاضر وينظروا للخلف بدلاً من النظر للمستقبل!

يتمنى لو أنه ولد قبل مائة عام، لربما كان عاش حياة أفضل، أصبح على مشارف الخمسين بسرعة لم يكن يتصورها، مرت سنوات الشباب خطفاً كأن الحياة سُرقت منه، وهو شاب كان يظن أن أمامه مائة عام قبل أن يصل إلى سن الخمسين؟!

عمله فى القصر جعله يرتبط بشكل أو بآخر بالأميرة وسيرتها ويهتم بكل تفاصيل حياتها، تمثل له جزءاً من هذا الماضى أو التاريخ الذى تمنى أن يعيش فيه..

رأها مرة واحدة، فى شبابه وهو بعد ما زال حديث عهد بالعمل هنا، لم يتمكن من الكلام معها، تمنى ذلك، لكنها كانت بعيدة، ومحاطة بعدد من الرجال الرسميين صاحبوها فى زيارتها لبيتها القديم، كان الزمن قد نال منها وطعنت فى السن، لكن عبق جمالها ظل موجوداً، برغم انحناءة الظهر الخفيفة ظل الرأس مرفوعاً بشموخ، وجزء من الشعر الفضى يظهر تحت غلالة حريرية زرقاء تلتف حول رأسها بأناقة، تمشى بقوة وبخطوات ثابتة وهى تدقق النظر حولها، ترمق الشجر، أحواض الزهور، النافورة الرخامية، الأرض المكسوة بالنجيل، الممرات التى تتخلل الحديقة..

وقفت طويلاً تتأمل واجهة القصر، احترم مرافقوها صمتها وتركوها مع ذكرياتها دون تدخل منهم، ابتعدوا عنها بلباقة متراجعين عدة خطوات ليفسحوا لها مجال الرؤية، لديهم تعليمات مشددة بالعمل على راحتها وتنفيذ رغباتها أثناء الزيارة.

مازال شامخاً مهيب المنظر تماماً كما أرادت وهى تبنيه، أن يستمر لأجيال راسخاً لا تؤثر فيه ولا تنال منه عوامل الجو والزمن!!

11

– نعم يا صاحبة السمو.

كان المهندس الفرنسى العجوز يردد بين الحين والآخـــر وهـــو يسمع مقترحاتها، لم يستطع أن يخفى دهشته وهى تحدد مســـاحة الأرض، نظر حوله كأنما يشير دون قصد إلى المنطقة الريفيـــة التى يقفون فيها.

– تريدين قصراً ضخماً يا سيدتى؟!

– نعم، أحب أن أقيم هنا بصفة دائمة بعيداً عن ضجيج العاصمة ومشاكلها.

– المكان هنا جميل بالفعل، لكن عاصمة بلادكم رائعة كذلك، إنها من أجمل عواصم العالم.

– أعلم ذلك فجدى هو الذى خططها على الطراز الحديث لتصبح كذلك.

– بالطبع يا صاحبة السمو، أعرف هذا.

– عندى قصر صغير هناك، لكنى أصبحت أفضل الحياة هنا فى الريف.

استغرق الفرنسى عدة أشهر ليستطيع وضع التصميم الذى تطلبه، هذا المزيج من الطابع المحلى والأوروبى ليس فقط فى الشـــكل

الخارجى للواجهة والمدخل والسلالم المؤدية إليه، وتصميم الشرفات والشبابيك ولكن فى الداخل أيضاً...

اهتمت الأميرة بالبراح الداخلى وتأثيره النفسى، أرادت أن يشعر من يدخل القصر بالطمأنينة والرحابة، لا بالرهبة التى تبعث على القلق والتوتر كما رأت فى كثير من القصور، وهو ما يتطلب تصميم الجدران والصالات بأعمدتها والسلالم والأبواب الداخلية، وحساب ارتفاع الأسقف ومساحات الغرف، بتناغم دقيق يحقق الانسجام بين أجزاء المبنى الداخلية وتوافقها معاً بانسيابية وبلا كتل ضخمة أو عوائق بصرية تصدم العين، وكذلك الشرط الأصعب فيما يتعلق بالتهوية ومساقط الهواء داخل القصر فى أيام الصيف القائظة، ما يعنى الدقة الشديدة فى معرفة اتجاهات الريح ومسار الشمس وتحديد الاتجاهات الأربع الأصلية ودراسة الطبيعة الجغرافية للمكان قبل الشروع فى البناء، وإنشاء القصر وفق هذه الحسابات ليصبح ظليلاً وبارداً من الداخل خلال شهور الصيف.

الأمر بالنسبة للتدفئة شتاءً كان أسهل، لا يتطلب سوى تصميم المدافئ التى تعمل بالحطب الطبيعى حسب رغبة الأميرة، وتوزيعها بحسابات دقيقة فى أنحاء القصر.

لم يكن الأمر قاصراً على تصميم المبنى فقط، كان هناك فريق آخر متخصص فى تصميم وإنشاء الحدائق الخاصة، توزيع

المساحات الخضراء والأشجار وأحواض الزهور، ثم حمام السباحة وملعب التنس والطريق الجانبى الذى يصلهما بالقصر عبر باب خاص يفضى إلى سلم صغير يصل مباشرة إلى غرف النوم بالطابق الثانى.

***

دخلت الأميرة بصحبة مرافقيها إلى القصر وتجولت فيه صامتة، كانت تنظر إلى الجدران وتتأملها طويلاً وهى تمشى، صعدت إلى غرفة نومها، وقفت أمام الباب المغلق، لم يتقدم أحد ليفتح لها الباب، فمدت يدها تلقائياً لتفتحه، لكنه كان موصداً، أشارت إلى المقبض وهى تلتفت إلى مرافقيها، ظهر الارتباك على وجوه الرجال وسرعان ما تقدم كبيرهم وهمس فى أذنها بعدة كلمات معتذراً، اتسعت عيناها دهشة أو استغراباً ثم هزت رأسها وواصلت سيرها.

لاحظت أن كل غرف الدور مغلقة الأبواب، أرادت أن ترى غرفتى ولديها، لكنها لم تجازف بالمحاولة، لم يعد الأمر يهم..

ابنها الأكبر من زوجها الأول كان صبياً على أعتاب الشباب عندما خرجوا من هنا، عاش معها فى أوروبا وأكمل تعليمه هناك ولم تعد تربطه صلة بهذا البلد سوى ذكريات عائلته الغابرة، لكنه لم ينس أنه أمير سابق مما جعله يقع فى صراع بين حياته كمواطن عادى وبين وضعه أو مكانته الاجتماعية التى يرى أنه

جدير بها، وهو ما أدى إلى تعثره فى الدراسة وفى العمل بعد ذلك.. مازال يعيش حياة مضطربة لا تعرف الاستقرار.

ابنها الثانى كان مايزال طفلاً فى السادسة من عمره، أبوه لم يكن من العائلة الملكية لكنه ينتمى لأسرة أرستقراطية عريقة، لم يرض بعد انتهاء الحكم الملكى أن يترك وطنه ويعيش بقية حياته منفياً فى أوروبا، فرجع بعد سنة مصطحباً ابنه تاركاً زوجته الأميرة مع العديد من أفراد عائلتها فى المنفى.

الابن الثانى واصل دراسته وحياته دون عوائق، ظلت أسرة أبيه تتمتع بالنفوذ والثراء برغم الظروف الصعبة التى مرت بهم، خاصة فى السنوات الأولى والتى لا يتذكرها بطبيعة الحال أو لا يهتم بأمرها كثيراً، فمع تفتح وعيه ووصوله لسن الشباب كانت الأسرة قد استعادت الكثير من مكانتها، وتجاوزت تلك العقبات التى حاصرتها مع بداية نظام الحكم الجديد، لذلك لم يكن غريباً أن يقول لأمه منذ عدة أيام وهو يتحدث معها بعد عودتها من منفاها الطويل، نحن كنا ومانزال أسياد هذا البلد!

أخبرها كذلك أنه يعمل على استعادة قصرها الريفى وهو على ثقة من تحقيق هذا الهدف فى يوم ما، لقد كانوا يستخدمونه كسجن للشخصيات المهمة من المغضوب عليهم، يوضعون فيه تحت الإقامة الجبرية لمدد تتراوح من أسابيع إلى شهور!

– أعرف، سمعت هذا الكلام أو هذه الإشاعات.

– القصر الآن غير مستخدم تقريباً، بعد أن انتشرت السجون الحقيقية والسرية فى كل مكان بهذا البلد.. هاهاها، قطع كلامه ضاحكاً لعدة ثوان قبل أن يكمل، لكنهم يحرصون مع ذلك على الاحتفاظ به.

قالت الأميرة بما يشبه الرجاء.

– هل من الممكن أن أزور القصر، لو كان ذلك ممكناً؟

قال مبتسماً وهو ينفث دخان سيجاره الفاخر، إن الأمر ليس سهلاً يا صاحبة السمو، لوجود القصر تحت سيطرة عدة جهات حكومية، منها جهات سيادية وأمنية، لكننى سأجرى بعض الاتصالات.. وسوف نرى!!

عند إحدى الغرف تذكرت ابنة خالتها التى كانت تزورها كثيراً لتقضى معها بضعة أيام، تمضيها فى ركوب الخيل، ترمح بها بين الحقول لتصل إلى أطراف العزبة البعيدة، كانت شقراء جميلة طويلة القامة، جريئة مقبلة على الحياة مع شىء من التهور والاندفاع، انتهت حياتها نهاية مأساوية وهى مازالت فى سن الشباب! حزنت عليها كثيراً وقتها، كان ذلك فى بداية عهدها بالمنفى.

عمتها الأرملة العجوز كانت تشارك بجزء من أموالها فى مزرعة الخيل منذ أيام شقيقها والد الأميرة، لم تكن جميلة لكنها طيبة القلب وراجحة العقل، عاشت مع زوجها عمراً طويلا ولم

تنجب، وكان هذا من أسباب شعورها الدائم بالحزن، كانت من هواة الخيل والكلاب أيضاً، وفارسة بارعة فى شبابها، قبل وفاة زوجها كانت تأتى عدة مرات فى الشهر لتقضى اليوم فى مزرعة الخيل مع ابنة أخيها، وبعد ترملها وهى على أعتاب الشيخوخة ومع زيادة شعورها بالوحدة أصبحت تأتى لتقيم أياماً فى القصر مع كلابها البريسكناريو الأربعة، كلاب سوداء ضخمة مرعبة لكنها مطيعة جداً لصاحبتها، هذه الكلاب كانت تتسبب فى بعض المشاكل مع الغزلان والطواويس الطليقة فى الحديقة، مشاكل طفيفة تثير الضحك ولا تلبث أن تصبح مادة للتندر والفكاهة!

اعتادت الأميرة العمة أن تذهب فى الصباح الباكر إلى الإصطبل لتقضى عدة ساعات مع الخيول، ثم تجلس بقية النهار فى الحديقة تقرأ كتاباً أو لتطالع المجلات سواءً المحلية أو التى تأتيها من أوروبا بانتظام.

عنما انتهى زمن عائلتها الحاكمة، جن جنونها وأصبحت تتصرف بعصبية مع الجميع، لم تتقبل تغير الوضع وفقدان سلطتها ونفوذها وخشيت على حياتها ومجوهراتها وأملاكها، وظلت تتنقل بين فيلتها فى العاصمة وبين قصر المزرعة، وهى تحمل معها صناديق مجوهراتها، تقضى أياماً هناك وأياماً هنا ولا تدع أحداً من الخدم يقترب منها، كانت كلابها تزمجر على الفور وتستعد للهجوم إذا تجرأ أحدهم وحاول أن يكلمها إشفاقاً عليها وهى

تمشى فى حديقة القصر ساهمة ولا تكاد تجلس أو تأكل، لكنها بعد شهور استقرت فى المزرعة بصفة مستديمة، وأصبحت أكثر استسلاماً للوضع الجديد، استسلام يقترب من حالة عدم الوعى أو الذهول الدائم الذى وصل بها لما يشبه البلاهة، لم تتحمل شيخوختها الصدمة وانهارت أعصابها تدريجياً وهى ترى أملاكها تُصادر، وأسرتها الملكية تتلاشى وتتشتت فى المنافى، ظلت لعامين تعيش فى القصر وحيدة لا تكاد تغادره فيما يشبه الإقامة الجبرية..

***

خرجت الأميرة من القصر وسألت مرافقيها عن إصطبل الخيل.

– لم يعد موجوداً يا فندم.

لكنها أرادت مع ذلك أن تلقى نظرة على المكان، على الأرض التى كان يوجد عليها، ساروا حولها وهى تتجه مباشرة ناحيته، مرت على حمام السباحة، كان غير مستخدم أيامها وفارغاً من الماء والغبار يعلو كل ما يحيط به، المظلات الرخامية والنوافير، وكثير من بلاط الممرات حوله مخلوع وتبدو مساحات الفراغ الترابية ظاهرة مكانه..

– خسارة!

قالتها بعد أن توقفت للحظة ألقت خلالها نظرة سريعة كانت كافية لتملأ قلبها حسرة، واصلت طريقها وهى تشعر بقلبها يخفق

وتزداد سرعة ضرباته مع اقترابها من المكان الأثير إلى نفسها، لا يوجد أثر للرائحة! رائحة الخيل المحببة إليها والتى تشعرها بالسعادة بمجرد أن تجدها فى الهواء، كانت فيما مضى تملأ الجو فى نفس هذا الموضع الذى تخطو عليه الآن، هوايتها وعملها الذى أنقذها من الحاجة والعوز فى المنفى..

صلاتها بكبار المربين فى أوروبا وتعاملها معهم عبر سنوات، وخبرتها الكبيرة فى أصناف الخيل وسلالاتها المتعددة الأصلية والمهجنة، وطرق تربيتها وتغذيتها والعناية بها، ومعرفتها الدقيقة بالصفات التشريحية للأحصنة والأفراس المتميزة.

طول عظام الساق وقوة أربطتها وشكل الحافر، وعرض الصدر وطول الظهر وتناسقه مع طول الرقبة وحجمها، وعرض الفخذ، ومدى اتساع فتحتى الأنف، وشكل الأذنين، وهى صفات عندما توجد بشكلها المثالى فى حصان فإن ثمنه يرتفع لأرقام فلكية وهو مازال مُهراً صغيراً، المربون والخبراء يتعرفون على هذا المُهر الذى يكون بمثابة ثروة لمالكه بمجرد ولادته، بعض مالكى الخيل يقيم حفلة خاصة عندما يولد عنده مُهر من هذه النوعية، هؤلاء الخبراء لديهم كذلك المقدرة على الفرز والتقييم ومعرفة الأمهار الصغيرة التى تستطيع عندما تكبر أن تفوز بسباقات الجرى الكبرى، أو التى تستطيع المشاركة بمسابقات قفز الحواجز بمهارة، أو التى لديها القدرة على خوض مسابقات الترويض..

استطاعت الأميرة أن تستغل معرفتها بعالم الخيل فى العمل كخبيرة مع كبار المربين، وكمحكمة فى مسابقات الفروسية والترويض، كانوا يستقبلونها باحترام ويحتفون بوجودها ويعلنون عن اسمها مسبوقاً بلقبها الملكى، صاحبة السمو الأميرة السابقة... افتقدت تلك الرائحة المحببة وهى تسير نحو مزرعتها القديمة، عندما وصلت إلى المكان لم تجد سوى بقايا مهدمة للإصطبلات وساحات الترويض؟! تجولت فى المكان وهى تنظر إلى الأرض كأنها تبحث عن أثار أيامها، رفعت رأسها وسألت كبير مرافقيها.

– ماذا فعلوا بالخيول؟

– حسب ما أعرف يا فندم، تم نقلها إلى مزارع أخرى تابعة للدولة، لأن المكان هنا بعيد.

– يعنى لم يقتلوها! هل أنت متأكد؟!!

– بالطبع.. متأكد، كيف يمكن أن يقتلوها؟ هذه الخيول كانت ثروة كبيرة حافظت عليها الدولة ووفرت لها كل الرعاية اللازمة، ومازالت سلالاتها موجودة فى محطات الخيل الحكومية.

– طيب.. الحمد لله، لابد إذن أن أزور هذه المحطات.. ضرورى.

– تحت أمرك يا فندم، سوف نرتب هذا الأمر لسيادتك.

– شكراً لكم.

***

اتجه أحد المهندسين إلى حيث يقف المهندس كمـــال وطلـــب أن يتحدث معه، ابتعد كمال عن أعضاء اللجنة ووقف مـــع الشـــاب الذى كان ينقل إليه شكوى المهندسين بشأن حوافز الانتاج التـــى يحصلون عليها، استمع كمال للمهندس الشاب ثم تكلم معه لبعض الوقت عن التفاصيل، وفى النهاية وعده بأن يـــتكلم مـــع مـــدام مرجريت مديرة الحسابات، ويراجـــع معهـــا كشـــوف الانتـــاج وحصص المهندسين والعمال بها.

محاصيل المزرعة الحيوية ومنتجات معمل الألبان بها، لا تُبـــاع فى الأسواق بل تُصدر بعد تعبئتها كطلبيات خاصة وبالطائرات، إلى جهات محددة فى البلاد المجاورة، بانتظام وبأسعار باهظـــة، وتحقق عائداً ضخماً على مدار السنة، وهناك كميات أخرى أقـــل توجه للاستهلاك الداخلى الخاص، لا تُباع بل تخرج من المرزعة رأساً إلى عدد من القصور الموزعة هنا وهناك؟!

openkandil.com

12

كان الوقت بعد منتصف الليل، وسلومة يتمشى بحذر عند ناصية الشارع الذى يسكنه عصام ويرقب حركة المارة، عادة يرجع عصام إلى بيته ما بين الواحدة والثانية صباحاً، سلومة يكمن فى انتظار أى فرصة تلوح له لينقض عليه، لابد أن يفاجئه من حيث لا يتوقع، لا يريد مواجهة أخرى معه، لابد من أخذه غدراً وبسرعة خاطفة قبل أن يستطيع الرد، لكن عصاماً الذى بدا واضحاً أنه يعلم بوجوده وتربصه به، يظهر أحياناً فجأة أمامه ويباغته برغم أنه يغير مكانه كل ليلة، قد يتعمد الاصطدام به وهو يمر بجانبه على الرصيف الذى يكون حتى تلك الساعة مازال مزدحماً والمحلات الموجودة عليه مازالت تفتح أبوابها.

لم يعترف سلومة بالهزيمة وظل مصراً بعناد على الانتقام، حتى وجد فى إحدى لياليه على الناصية عربة الشرطة تقف بجانبه، وينزل منها رجلان يطوقانه من جانبيه ويدفعانه لركوب العربة، لم يقاوم واستسلم لهما، كانت المرة الأولى التى يتعرض فيها للقبض عليه.

كان يجلس على المقعد الأمامى بجوار السائق ضابط شاب برتبة ملازم، أمره بإخراج بطاقة هويته، بينما كان مخبرا الشرطة

يستخرجان الجنزير الحديدى الملتف حول وسطه، ومطواة كبيرة بسلاح حاد من جيب بنطلونه الخلفى.

فى حجز القسم وجد سلومة صحبة طيبة وانسجم منذ الليلة الأولى مع رفاق الحبس الذين قضى معهم أسبوعاً، بعدها تم عرضه على النيابة بتهمة التسكع وتهديد المارة وحمل سلاح بالإضافة إلى تهمة مقاومة السلطات عند القبض عليه، ثم أحالته النيابة للمحاكمة التى قضت بسجنه..

السجن ليس مخيفاً كما كان يتخيل، يضم أصدقاء ورفاقاً تتفق طبيعتهم النفسية والعقلية مع طبيعته، وتتشابه طباعهم وميولهم مع طباعه، خرج منه بصداقات كثيرة وعلاقات متنوعة فتحت أمامه مجالات متعددة للعمل والحياة بعد ذلك.

عندما خرج من السجن بعد ثلاثة أشهر كان قد اكتسب خبرة عريضة بحياة الإجرام وعالم المجرمين، فحتى تلك اللحظة الفارقة فى حياته كانت معرفته بهم لا تتعدى حكايات يسمعها من أصحابه، معظمها مبالغات من نسج الخيال لا تمت بصلة للواقع الذى عرفه عن قرب فى السجن، عندما كان يسرق من الحقول وهو طفل كان يبيع ما يسرقه لبعض الباعة السريحة والتجار الصغار ممن لا ذمة لهم ولا ضمير، لكنهم لم يكونوا لصوصاً على كل حال. تعلم فى السجن الكثير من النشالين واللصوص

وتجار المخدرات وأمضى بصحبتهم فترة من أجمل فترات حياته..

ضخامة جسده العملاق وقوته وصوته الغليظ الخشن، وصياعته الطويلة فى الشوارع وإتقانه التام للغة القاع ومعرفته بمصطلحاتها وأسرارها، وشجاره الدائم مع الناس وخناقاته وشراسة طباعة وميله الفطرى للمشاكسة والإجرام، كانت مؤهلات لها اعتبارها أفسحت له مكاناً بينهم وجعلتهم يتقبلون صحبته بصدر رحب، رغماً عن تفاهة التهمة التى دخل السجن بسببها.

كان قد ترك خلال فترة السجن فكرة الانتقام من عصام وعدل عنها نهائياً، واعتبرها من قبيل لعب الصغار وشغل صياعة لم يعد لديه وقت له، خلال وجوده فى حجز القسم حذره ضابط المباحث من العبث مرة أخرى فى المنطقة التابعة له والتى تدخل فى دائرة عمله، خاصة مع أولاد الناس الذين يسكنون فى هذه المنطقة!!

***

فى الوقت الذى كان فيه سلومه يتوسع فى تجارة المخدرات ويتحرك نحو العمل فى كميات أكبر، متجاوزاً مرحلة العمل كموزع صغير للمتعاطين، ظهر أمامه باب آخر للرزق.

كانت حركة بناء العمارات الجديدة على أشدها فى الحقول والأراضى الزراعية القريبة من الفيلا، حيث تم تبويرها وتقسيمها إلى قطع صغيرة، ثم تحويلها بسرعة شيطانية إلى أراضى بناء، اتخذ من الكشك مكاناً للسمسرة فى عمليات بيع قطع الأراضى والشقق الجديدة وتأجيرها، وبدأ المال يجرى بين يديه.

استأجر شقة لنفسه وترك السكن مع أبيه وإخوته فى الفيلا، ولم يلبث أن تزوج وبعدها بفترة وجيزة ترك العمل فى الكشك لأبيه العجوز، وبدأ يتخذ مظهر المعلم مع وصوله إلى سن الرجولة، وتشعب علاقاته ووجود عدد من الأتباع حوله، بعضهم يعملون كصبيان له فى تجارة المخدرات، وأخرون يعملون لديه فى أعمال السمسرة والمقاولات وتجارة الأراضى التى توسع فيها، واتخذ منها ستاراً لعمله الأساسى فى تجارة المخدرات.

فى الوقت الذى كان الابن يزداد غنى ويسير على طريق الثراء بخطوات سريعة، ويتوسع نفوذه كرجل عصابات، كان الأب مازال يقف فى الكشك ويسكن فى الفيلا، وبين الحين والآخر يبيع مجموعة من لوحات قريبه البعيد وفيق الرسام لنفس الرجل الذى تعامل معه فى المرة الأولى، كان يصطحب معه فى كل زيارة مجموعة مختلفة من الرجال، يشاهدون اللوحات وينتقون منها ما يريدونه.

ازداد جشع صالح مع تكرار الزيارات وأصبح أكثر جراءة فى تعامله مع زبائنه اللصوص، وأخذ يغالى فى ثمن اللوحات، والرجل يساومه عند الدفع ويدخل معه فى جدل طويل قبل أن يتفقا على السعر.

لم يدرك صالح أن عمليات البيع السرية التى يقوم بها تلقى صدى فى أماكن أخرى، اعتقد أن التكتم الذى يحرص عليه داخل الفيلا، وغلقه لباب المرسم بعد دخوله إليه مع زواره، وكلامه معهم بصوت خفيض، وإخفاءه للمال الذى يحصل عليه بين طيات ملابسه، كافياً لجعل عمليه انتقال اللوحات وبيعها فى أماكن أخرى تتم بنفس الحرص والسرية، فهم الأمر على أن من يشترون منه لصوص هم أيضاً وأنهم سيحرصون على الكتمان حتى لا يفضحون أنفسهم..

كان الأمر كذلك بالفعل، لكن انتقال اللوحات عبر سلسلة من عمليات البيع والشراء التى يقوم بها هواة الفن والسماسرة والتجار، جعلت أعمال وفيق بسيونى تصل فى نهاية الأمر إلى من اعتقد أنه اشترى اللوحات بطرق قانونية، ومن خلالهم وصلت بعض اللوحات إلى مزادات بيعت فيها بأرقام كبيرة.

حدثت حالة من الرواج لأعمال وفيق بسبب إعادة طرح لوحاته وعرضها على الجمهور، وبدا أن الرسام الذى لم يحقق فى حياته

سوى شهرة محدودة، يُعاد اكتشافه من جديد ويتزايد الاهتمام بلوحاته القليلة المعروضة فى المزادات!

اهتمت الصفحات الفنية فى الجرائد بهذا الحضور المفاجئ لفنان كان النسيان قد طواه منذ سنوات، لوحاته التى تصور جماليات أماكن اندثرت ولم يعد لها وجود، الطبيعة التى تبدو فى غاية الصفاء وتشع بالطمأنينة وتتألق بألوان ساحرة، الأهالى الذين يبدو عليهم الرضا وتلوح الطيبة على ملامحهم برغم فقرهم، تقنيات المدرسة التأثيرية بإضافات مبتكرة وإسلوب متفرد ابتكره وفيق بسيونى ليصبح سمة لإعماله، تميزه عن غيره من الرسامين..

لم تكن هناك صعوبة أمام الصحافة فى تتبع تاريخ الفنان، والوصول إلى سكنه ومرسمه الذى مازال يحوى الكثير من أعماله.

اكتشاف مبنى الفيلا وطرازها المعمارى الفريد كان حدثاً آخر، له أهميته الخاصة، أضاف إلى قيمة الفنان وأثرى التحقيقات الصحفية التى تجرى حول حياته، اعتبرت الفيلا عملاً فنياً من أعماله المتميزة، التقطت لها عشرات الصور من من زوايا مختلفة ونُشرت مع صور وفيق ولوحاته.

كان صالح يتابع ما يجرى حوله بعين زائغة وعقل مشتت، ويشعر بأنه يعيش كابوساً وهو يرى تدفق الصحفيين بكاميراتهم

وأوراقهم وأجهزة تسجيلهم على بيته، ويوقن أن اكتشاف تبديده للوحات أصبح قريباً، وأن دخوله السجن قد أصبح أمراً حتمياً..

لم تتأخر زيارة أحفاد شقيق وفيق وشقيقاته، كانت الأخبار قد وصلتهم عبر الصحف، وتنبهوا بعد سنوات من النسيان إلى ما يمتلكونه بالوراثة، قبل أن يحضروا قاموا باتخاذ الإجراءات القانونية للحصول على إرثهم الشرعى فى الفيلا واللوحات.

مجموعة من الرجال يصحبهم محام وعدد من موظفى الحكومة، أبدوا استياءهم من اللحظة الأولى لسكن صالح فى الفيلا، وزجروه بالكلام الذى يبطن التهديد، وشرعوا على الفور بجرد محتويات الفيلا، وخاصة لوحات شقيق جدهم وجداتهم التى أصبحت تمثل ثروة هائلة.

استكان صالح وقد نالت منه الشيخوخة وزادته ضعفاً فى مواجهتهم، وركبه الهم، وظل يتحرك معهم كالتائه الذى لا يشعر بما يدور حوله، وقد أذهله وجود محاضر الجرد وعليها توقيعه والتى ظن أن الزمن قد غفل عنها بحوزتهم!

بعد دقائق من دخولهم المرسم ووقوفهم وسط طبقات التراب الكثيفة التى تغطى كل شبر فيه، تبين لهم مدى صعوبة جرد مئات اللوحات المحفوظة داخل اسطواناتها، بالاضافة إلى ما يحويه المرسم من تحف وأعمال نحتية، تقبع كلها فى ظلام

الغرفة الواسعة التى لا توجد بها إضاءة تحت أكوام التراب الخانق.

لم يكن لدى الأحفاد شك فى سرقة صالح للوحات وبيعه لها، لكن عمليه الجرد التى ظنوا أنها لن تستغرق سوى ساعة أو ساعتين على الأكثر، اتضح أنها تحتاج إلى عمل متواصل ولأيام طويلة، والأصعب من هذا أن الجرد لابد أن تقوم به لجنة فنية متخصصة، لديها القدرة على المقارنة بين مسلسل اللوحات المكتوب فى دفاتر الجرد وبين الموجود على الأرفف، لكن أحد الأحفاد صاح فى اللحظة الأخيرة قبل خروجهم من المرسم، مقترحاً أن يقوموا بعد اللوحات والتماثيل الموجودة فى الغرفة ومقارنتها بالعدد الموجود فى الورق، استحسنوا الفكرة وشرعوا من فورهم فى عد اللوحات وهى بداخل اسطواناتها.

فوجئوا بأن العدد جاء مطابقاً لما هو مدون فى المحاضر! اللوحات موجودة كلها لم تنقص لوحة واحدة! تحيروا وأصابهم الارتباك، من أين جاءت إذن هذه اللوحات التى عُرضت فى المزادات؟ إن لم يكن من هنا!

تنفس صالح الصعداء، كان حرصه على إعادة وضع الاسطوانات الفارغة فى أماكنها على الأرفف، سبباً فى نجاته ولو إلى حين فى هذا اليوم الأسود، الذى طالما راوده فى كوابيسه، باع أو بدد ما يزيد على التسعين لوحة، جاءك الموت يا تارك الصلاة.. آه يا

غلبى يا وقعتك السودا يا صالح، مازالت المصيبة الأكبر فى الطريق، البيت الذى عاش فيه عمره وأنجب أولاده وبناته فيه، هل سيخرج منه.. هكذا؟ بهذه البساطة، بعد كل السنين التى قضاها هنا، أين سيذهب؟ لا يمكن أن يرجع القرية، الحصول على سكن آخر فى الحى شىء صعب، وهل يمكن له أن يعيش فى إحدى هذه الشقق الضيقة بعد براح الفيلا؟!

***

قبل أن يصل الأحفاد إلى بوابة الفيلا وهم فى طريقهم للخروج، بعد أن توعدوا الغفير بمنتهى الغطرسة أن أيامه فى الفيلا قد أصبحت معدودة، وأن عليه تجهيز أغراضه لمغادرتها..

وصل سلومة ومعه عدد من رجاله وهم يعلقون فى أحزمتهم أسلحتهم البيضاء بشكل ظاهر ومقصود، اقتحم الحديقة وهم مازالوا بداخلها يوبخون أباه غاضباً ثائراً ومستعداً للعراك، كانت أخته الصغرى قد اتصلت به مستنجدة وهى تصرخ فى التليفون.

– الحق أبوك يا سلامة.

سألها عما حدث، فحكت له لاهثة وبالغت قدر ما استطاعت فيما تعرضوا له من اقتحام البيت والبهدلة على أيدى هؤلاء الرجال الغرباء.

فتح عليهم صوته مهدداً ومنذراً واستطاع أن يأخذهم بالصوت ويبدل الوضع الذى ظنوه سهلاً إلى النقيض، اعتقدوا أن استرجاع

الفيلا التى ارتفع ثمنها إلى ملايين كثيرة، ليس بسبب طرازها ولا قيمتها التاريخية أو الفنية ولا بسبب ارتباطها بتاريخ رسام أصبح مشهوراً فجأة وتسلطت عليه الأضواء، ولكن بسبب قيمة الأرض التى يقع عليها مبنى الفيلا وحديقتها الواسعة! بالاضافة إلى قيمة اللوحات التى أصبحت هى أيضاً تساوى الكثير!

ظهور سلومة بهذا الشكل المباغت، وبطريقه أعلنت بما لا يدع مجالاً للشك عن هويته كبلطجى ورجل عصابات، أربكت جميع الحسابات وغيرت كل قواعد اللعبة؟!

قال إن الفيلا بيتهم ولن يستطيع أحد كائناً من كان أن يخرجهم منها، وإنه سيقطع رجل أى إنسان يفكر فى دخولها مرة أخرى!

استجمع أحد موظفى الحكومة شجاعته ورد فى محاولة للحفاظ على ماء الوجه، إنهم فى مهمة رسمية لمعاينة الفيلا وجرد محتوياتها حسب القانون، وتهديدهم بهذا الشكل يعنى التعرض لموظف حكومة أثناء تأدية عمله و....

– تأدية إيه.. يا روح امك!! هذا الكلام تروح تسرح به فى مكان آخر غير هنا..

زعق سلومة فى الرجل فبلع كرامته وسكت رغماً عنه.

تدخل أكبر الأحفاد سناً، وهو رجل شاب فى نهاية الثلاثينيات ضخم الجثة يبدو على شىء من الوجاهة، فى محاولة أخرى لاحتواء الموقف، لكنه توجه بالكلام إلى صالح لعله يثير فيه شيئاً

من النخوة تحميهم من بطش ابنه، ذكره أولاً بصلة القرابة التى تربطهما معاً، وأنهم أهل برغم أى شىء ومن عائلة واحدة، ومهما حدث بينهم فإن كل الأمور يمكن تسويتها بالتراضى وكل حى ينال نصيبه، بالقانون وحسب شرع الله.

ثم ختم حديثه معاتباً بعد أن رأى صالحاً ينصت إليه كالموافق على كلامه، وأحس أنه قد سيطر على الموقف إلى حد ما، خاصة وأن سلومة لم يقاطعه وهو يتكلم.

– عيب نكون فى بيتك والناس تتهجم علينا يا حاج صالح.

– حقك على رأسنا يا أستاذ.

رد صالح وهو مازال تحت تأثير الخوف من اتهامه بالسرقة. لكن سلومة قاطعه..

– اسكت أنت يابا، أنت راجل غلبان وطول عمرك ماشى جنب الحيط!

ثم أكمل كلامه موجهاً حديثه لأكبر الأحفاد.

– اسمع يا أستاذ أنت.. محل السكن مكتوب فى بطاقاتنا الشخصية أنا وكل أخواتى على عنوان الفيلا هنا، يعنى رسمى وأمام الحكومة الفيلا بيتنا وتخصنا، ولن نخرج منها! وكل ما فيها من هذه اللحظة ملكى أنا وأبويا وأخواتى، الرسومات والتحف وكافة شىء.. وأعلى ما فى خيلكم وخيل الحكومة اركبوه!!

***

توجه الأحفاد بصحبة محاميهم وموظفى الحكومة إلى قسم الشرطة لتحرير محضر بالواقعة، ولإثبات حقهم القانونى في الفيلا واللوحات، تجهم الضابط عندما عرف التفاصيل وقال مخاطباً المحامى بضيق لم يحاول أن يخفيه.

– نزاع مع سلامة صالح بسيونى الشهير بسلومة، على الفيلا التى يقيم فيها أبوه.. المشكلة بهذا الوضع كبيرة وخطرة أيضاً!

قال أكبر الأحفاد بشيء من الانفعال.

– أبوه مجرد غفير على الفيلا يا حضرة الضابط ولا يحق له الإقامة فيها أصلاً.

أكمل المحامى محدداً مطالب الورثة.

– نريد إثبات واقعة التعدى والتهديد والاستيلاء على ملكية وعمل محضر رسمى بذلك..

تجاهله الضابط وتوجه بحديثه إلى الأحفاد.

– وأين كنتم يا سادة خلال السنوات الماضية؟ لماذا تركتم الوضع يصل إلى ما وصل إليه؟

–.....

– سلومة قريبكم كما فهمت، نصيحتى لكم أن تتفاهموا معه، حاولوا حل هذا النزاع بالتراضى أفضل، طريق المحاضر والتقاضى طويل وسوف يستغرق سنوات، كما أننا كشرطة لن

نستطيع أن نحميكم في حال لو تعرض لكم سلومة أو أحد رجاله؟!!

– وأين القانون سيادتك؟

هذه المرة رد الضابط بلهجة ودودة وقد خفف من حدته.

– القانون موجود والشرطة موجودة، ونحن نفعل ما بوسعنا، لكنى أتكلم معكم فيما يحقق المصلحة وينهى النزاع من أقصر الطرق.

وجم الأحفاد ولم يردوا، فقال الضابط مخاطباً الموظفين.

– وأنتم يا أساتذة، هل تريدون عمل محضر لسلومة بالتعدى عليكم أثناء تأدية عملكم..

– لا.. سيادتك لا نريد!

***

أحضر سلومة مقاولاً من معارفه ليقوم ببناء دور ثان على سطح الفيلا، كان لابد أولاً من هدم الأعمدة المقامة على السطح والسقف الذى تحمله كمظلة تبدو من بعيد كأنها سجادة تسبح فى الفضاء، شرفة الدور الثانى التى تعطى الفيلا طابعها المعمارى، وتضيف بعداً جمالياً لم يكن له أن يتجسد إلا فى عقل فنان، يمتلك من الشطح والجموح الفنى ما يجعله يصنع من دور كامل مجرد شرفة!

الشرفة التى طالما جلس وفيق تحت ظلها المطل علـــى الحقـــول ليرسم، سواءً بمفرده أو بصحبة أصدقائه وصديقاته من رســـامى أوروبا، والتى شهدت جلساتهم عصراً وسهراتهم الطويلـــة فـــى المساء..

في أواخر عمره كان وفيق يجلس فى شرفته ويراقب من بعيـــد المبانى والعمارات وهى تأكل الحقول، وتتوغل بطـــرق يراهـــا همجية فى الأراضى الزراعية!

هذه المدينة فقدت عقلها وتوحشت، تفترس الجمال والذوق وهـــى تتوسع كوحش أسطورى أعمى البصر والقلب معاً، كان يتعجـــب ويتحسر كلما رأى بناءً جديداً يضاف إلى الحى الذى تنتهى عنده المدينة، هذا الحى الذى كان بعيداً ويقترب الآن من بيته بإصرار لا يرحم!

يدير رأسه ليتأمل بحزن المساحات الخضراء وهى تتألق بزرعها تحت شرفته، ألا يوجد في هذا البلد رجل عاقل يتصـــدى لهـــذه الجريمة ويمنع وقوعها؟ كيف لا يوجد قانون يحمى هذا الـــزرع وهذه الأشجار من الاغتيال؟

هل سيأتى اليوم الذى تُحاط فيه هذه الفيلا بالعمارات؟! وتتحـــول هذه الحقول التى أنظر إليها الآن إلى شوارع ومبان؟ يالـــه مـــن جحيم.. حتى لو كان الموت قد غيبنى عن الحياة قبلها، فلا أحب لهذه الكارثة أن تحدث، ولا لهذا الكابوس أن يتحقق.. أبداً أبداً.

بهدم الأعمدة والمظلة من السطح فقدت الفيلا طرازها المعمارى المتميز وطابعها الفنى، ولم يصمد الطابق الأرضى بتصميمه وجماليات تكوينه أمام الحوائط الصماء التى أقيمت فوقه، فما أن تم بناء الدور الثانى حتى كانت قد أصبحت مجرد مبنى سكنى من طابقين.

انتقل سلومة بزوجته وعياله ليقيم في الطابق الثانى ليفرض أمراً واقعاً على الورثة ويجعل استردادهم للفيلا حسب اعتقاده فى حكم المستحيل، واحتفى بمسكنه الجديد على طريقته، تزوج بزوجة ثانية بعد أسابيع من انتقاله للحياة فيها، وأقام فرحاً باذخاً في حديقتها، جلب أشهر الراقصات في الحى وعدداً من المطربين الشعبيين المعروفين، وأغدق فيه على المدعوين بأفخر أصناف المخدرات، من الحشيش إلى مختلف أنواع البرشام المقوى والمخدر والجالب للهلوسة، وأتى بصناديق لا حصر لها من البيرة أزاغت أعين ضيوف الفرح، فانقضوا عليها انقضاض الجوارح الجائعة يشربون منها بلا حساب..

وفى أحد أركان الحديقة الخلفية أقيمت غرزة لخاصة أصدقائه ومعارفه من كبار المعلمين والتجار، جلسوا بمنتهى العظمة، يُخدم عليهم عدد من الصبيان يجهزون الفحم ويغسلون الجوز ويعمرونها بقطع الحشيش ثم يقدمونها للضيوف، وآخرون يقفون عند مائدة مترعة بزجاجات الويسكى وأباريق الثلج والكؤوس..

***

قبل مرور عام على استقراره في الفيلا، بدأ سلومة يفكر في استغلال المكان والاستفادة منه، أزال من أمام السور الكشك الذى أرغم أباه على غلقه بمجرد شروعه في بناء الطابق الثانى، واقتطع مساحة كبيرة من الحديقة بنى عليها محلاً ضخماً لتجارة البقالة والخردوات بالجملة.

كان صالح يرى هذا التحول الذى طرأ على حياته وهو يكاد لا يصدق، ينظر إلى اللافتة الكبيرة على واجهة المحل وهى تحمل اسمه، أولاد صالح لتجارة الجملة، ويبتسم لتصاريف القدر متعجباً، يجلس على كرسيه بجوار ماكينة الحسابات مرتدياً جلباباً فاخراً ويضع على رأسه عمامة بيضاء نظيفة، ذقنه حليقة وشاربه مشذب، وقد اتخذ مظهر المعلم صاحب رأس المال، يتابع عمليات البيع والشراء وعربات الموردين وهى تصب بضائعها على الأرفف النهمة، التى لا تكاد تمتلئ حتى تفرغ وتطلب المزيد من البضائع، جيش من العمال والمشرفين يعملون في المحل، كلهم رهن إشارة من إصبعه، وزاد من سعادته أن اثنين من أولاده تركا عملهما كحرفيين فى الورش وتفرغا للعمل معه فى إدارة المحل، فلم يكن بوسعه وهو فى هذه السن المتقدمة أن يتحمل بمفرده أعباء تجارة بهذا الحجم الذى ألقاه ابنه الأكبر على كتفيه.

لم تتوقف مشروعات سلومة التوسعية في حديقة الفيلا عند افتتاح المحل، كان بحاجة إلى واجهة تجارية متعددة الجوانب ليغطى بها على أرباحه المتزايدة من تجارة المخدرات، فسعى لتحقيق حلم صباه المبكر بامتلاك مقهى، بنى على الجانب الآخر من الحديقة مقهاً واسعاً وبالغ فى الانفاق على ديكوراته وتجهيزاته وجعله فى منتهى الفخامة، ولم يلبث أن اكتظ بالرواد بمجرد افتتاحه، لم تعد مكانة سلومة كمعلم تسمح له بالجلوس على الخزينة وتلقى الماركات من عمال المقهى كما تمنى فى صباه، ترك إدارة المقهى لأحد إخوته، واكتفى بالجلوس فى أحد الأركان البعيدة عن الخزينة عند مروره بين الحين والآخر ليقضى بعض الوقت فيه، فالجلسة فى المقاهى عموماً لم تعد من هواياته ولا من عادته المزاجية، يفضل الأجواء المغلقة التى تلفها السرية بعيداً عن العيون، مع زجاجات الويسكى وسجائر الحشيش والصحبة المحدودة التى تتكلم لغة واحدة..

***

لم يستسلم الأحفاد أمام بلطجة سلومة واستيلائه على الفيلا وأرضها، فقاموا بتحرير محاضر ورفع قضايا متوالية واستعانوا بكل معارفهم، واتصلوا ببعض المعلمين من كبار البلطجية لتسوية النزاع واستخلاص حقهم، فكانوا كالمستجير من الرمضاء بالنار، فاضطروا فى نهاية الأمر إلى اللجوء لأقاربهم فى القرية ممن

تربطهم بصالح صلات مباشرة، هؤلاء الذين كان سلومة يـــراهم فى طفولته عندما يأتون لزيارة أبيه ويمكثون معهم عدة أيام، أو فى المرات القليلة التى ذهب فيها مع أبيه وأسرته إلى القرية.

لم يبد أي اعتبار لهؤلاء الأقارب وتدخلهم فى النـــزاع، وقـــابلهم بجفاء وجلس معهم على مضض بعد إلحاح مستميت من أبيـــه، واستمع بنفاد صبر إليهم وهو يرمقهم متجهماً..

كان صالح مازال يشعر بقلق وتوجس من سرقته للوحات وبيعها، ويريد أن يرضى الأحفاد ويصل معهم إلى تسوية، فى داخل نفسه يشعر بتأنيب الضمير، تربى فى صغره على حرمة أكـــل حـــق الناس، ويعرف أن نهاية هذا الطريق الذى سار فيه مرغماً لـــن تكون طيبة، إيراد المحل اليومى أكبر من أي طموح دار فى أشد أحلامه جموحاً، لم يكن يريد من الحياة سوى الستر، لكن الأموال تتدفق عليه الآن كالنهر الجارف، صحيح أن ابنه يحصلها لنفسه ولا يترك له سوى القليل، لكن هذا القليل كثير جداً بالنسبة له!

عرض على ابنه أن يشترى الفيلا ويـــدفع للأحفـــاد أي مبلـــغ، سيرضون بنصف الثمن أو حتى بربعه، ويصبح المكان ملكاً لنا شرعاً وقانوناً ونعيش بعد ذلك بضمير مستريح، لكـــن ســـلومة غضب وسب ولعن رافضاً الأمر تماماً، وقال إن ضميره مرتاح بالفعل وأنه لن يدفع شيئاً لأى مخلوق!

بعد طول جدل وجلسات عديدة جـرت بـين صـالح وأقاربـه، ضغطوا عليه خلالها بكل ما يملكون من حجج قانونية، وأسـانيد دينية من الأحاديث النبوية الشريفة والآيات القرآنية فى الترغيب والترهيب من حساب الله فى الآخرة، جعلته لا يقوى على رفـع عينيه فى وجوههم، سمح سلومة للأحفاد بعد أن خرج أبوه عـن شعوره وسبه وهدده بالتبرؤ منه إلى يوم الدين، بالحصول علـى اللوحات وكل ما فى غرفة المرسم من تحف وتماثيل، شعر بعدها بشىء من الحزن وتعكر المزاج لانتهاء لعبة الشد والجذب بينـه وبين الأحفاد، كان يحبها ويستمتع بما تمنحه له من شعور بالقوة، وتحقق رغباته فى السيطرة والإحساس بالتفوق، لكنه لم يـدرك أنها الجولة الأولى فقط، ومازالت هناك جولات كثيـرة غيرهـا تنتظره فى المستقبل!

openkandil.com

13

عاد رزق إلى مكان وقوف السيارة بأعصاب متوترة وهو مطأطئ الرأس، وجوده في هذا المكان الهادئ المنعزل بمفرده وبجواره عربات عسكرية، جعله في حالة توقع لشر ما لا يعلم من أين سيأتيه، كانت السحب قد تكاثرت في السماء وحجبت أشعة الشمس وسرت في الجو برودة مفاجئة.

بمجرد أن اقترب من السيارة رفع رأسه ونظر ناحية النافذة فوجدها مازالت مفتوحة، وسمع صوت موسيقى يأتى من داخل القصر، صوت خافت لكنه واضح لعزف على البيانو بمصاحبة الكمان، برغم عدم سماعه لهذا النوع من الموسيقى من قبل، وجد فيها عذوبة وانسيابية وأيضاً فخامة ذكرته بالأثرياء وحياتهم المعقدة المتكلفة التى يكرهها، كانت الموسيقى تنساب من نافذة القصر لتمتزج بصوت الرياح الخفيفة الباردة، وهى تمر عبر أوراق الأشجار العملاقة وتصدر صفيراً متواصلاً يضفى جواً من الغموض زاد من إحساسه بالوحدة، وملأ قلبه بالوحشة وهو يقف فى هذه البقعة المعزولة.

انتبه عندما هم بفتح باب السيارة ليجلس بداخلها، أن السيارة مائلة ناحية اليمين وليست فى وضعها الطبيعى، أسرع حانقاً ليفحص

عجلتى الجانب الأيمن فوجد العجلة الأمامية فارغة من الهـواء، ضربها بقدمه غيظاً، سب ولعن وطوح بقبضته فى الهواء.
فتح صندوق السيارة الخلفى وأخرج العجلة الاستبن والكوريـك ومفتاح الصواميل وجلس على الأرض وشرع فى فـك العجلـة الفارغة.
بعد أن سحبها من مكانها وقبل أن يضعها على الأرض، أحـس بالغريزة التى تصبح أكثر رهافة عندما يكون الإنسان بمفرده فى مكان خالٍ، بوجود شخص ما يراقبه أو ينظر إليه، رفع رأسـه بسرعة نحو النافذة، فوجدها مغلقة، ثمة صوت شـديد الخفـوت يأتى من بعيد، خطوات إنسان يمشى على بلاط الممر الذى يدور حول القصر، رفع رأسه بحذر مستطلعاً، ظن أن بدراً قـد جـاء ليطل عليه أو لأى سبب آخر، لكنه رآها وهى تقبل من بعيـد.. بفستانها الكحلى الغامق، شعرها الرمادى الهائش يتلاعـب بـه الهواء، تمشى على مهل ورأسها مرفوع باعتداد، نزلت من الممر الذى يعلو الأرض بمقدار بلاطـة، واتجهـت نحـو السـيارات المصفوفة في أقصى الساحة المجاورة للقصر، كانت تسير فـي اتجاهه، والأشجار تهتز وتتمايل وتصدر صفيرها الحـاد الـذى يبعث على الكآبة أو.. الخوف، حسب الحالة التى يكـون عليهـا الإنسان وهو يسمعها؟!!

ارتجف وسرت رعشة في بدنه، ووقع عليه الإطار قبل أن يتمكن من وضعه على الأرض، وسرت سخونة في جسده وشعر بالعرق يتفصد من جميع مسامه، زحف إلى الخلف بمؤخرته والإطار مازال جاثماً عليه.. بسم الله.. الرحمن... الرحيم، السيدة تقترب بإصرار، مفاصله التى تراخت تمنعه من القيام، يوالى الزحف على الإسفلت لكنه لا يكاد يتحرك، تحولت حركته إلى رعشة يهتز لها جسده كله وهو ثابت فى موضعه، المسافة تضيق بينه وبين السيدة ذات الفستان الكحلى والشعر الأبيض، عفريت البرنسيسة.. يا رب رحمتك يا رب، أعصابه تفلت ولا يعد باستطاعته التحكم في أحشائه الداخلية فينطلق منه الضراط دون أن يشعر.

البرنسيسة العجوز التى طالما روعت أحلام طفولته وملأت لياليه بالفزع، على بعد خطوات منه الآن.. ظهرت له بعد هذا العمر!

إنها لا تتوقف، تقترب أكثر فأكثر، تجمد في مكانه وقد اتسعت عيناه عن آخرهما وهو يحدق فيها، يلمح شبح ابتسامة على وجهها الأبيض، عيناها خضراوان، تنظر نحوه وهى تتمعن فيه، ما الذى تريده؟ ماذا ستصنع فيه؟

– يا لهوووووى.. الحقووووونى يا ناس.. يا نااااس!

صرخ بعزم ما تبقى فى أعصابه المنهارة..

***

كان الجميع يضحكون، ومدام مرجريت تقف بجسدها النحيف الطويل مستغربة وغير مستوعبة لما حدث، كيف يمكن لرجل مثل البغل كهذا أن يخاف لهذا الحد منها؟! كانت فى طريقها لسيارتها التى تقف بجوار السيارة الحكومية، وفوجئت بالتصرفات الغريبة لهذا الرجل وهو جالس يستبدل عجلة سيارته، ثم بالحالة الهستيرية التى انتابته عندما أوشكت على الوصول إلى سيارتها.

لم يستطع أحد من موظفى القصر معرفة السبب فيما حدث لرزق، فعندما تبين له حقيقة الموقف وشاهد بدراً يأتى جرياً ومن خلفه بقية العاملين فى القصر، ويتجهون مباشرة نحو مرجريت ويسألونها عما حدث معتقدين أن سبب استغاثة رزق وقوع مكروه أصابها، وهى تردد مذهولة وتشير إلى رزق بيد مرتعشة، لا أعرف.. اسألوه، هذا المجنون.. ماذا يفعل هنا؟ وكيف دخل هذا المكان؟ لزم الصمت ولم ينطق بكلمة وجميع الأنظار تتجه إليه مستنكرة، ولم يلبثوا أن ضحكوا وقد خمنوا إلى حد ما السبب.

تقدم بدر وأزاح بيده الإطار جانباً ثم ساعده على النهوض، ولم يستطع أن يغالب الضحك برغم غضبه وحنقه على رزق.

– كنت عارف من أول لحظة شفتك فيها، إنك رجل خائب!

انصرفت المدام بسيارتها وهى ترمق رزق بمزيج من التعجب والاشمئزاز، وسرعان ما انفض الموقف وعاد كل رجل إلى عمله، شرب رزق كوب الماء الذى أحضروه له دفعة واحدة ثم أشعل سيجارة وجلس على الرصيف يدخنها فى وجوم وقد وضع رأسه بين كفيه.. قام متثاقلاً بعد أن انتهى من السيجارة واستكمل تغيير العجلة الفارغة بعقل مشوش وعلى وجهه ابتسامة خجل باهتة.

***

كان صندوق السيارة الخلفى مازال مرفوع الغطاء وهو منحن عليه ليضع بداخله الكوريك ومفتاح فك الصواميل، حين امتلأ المكان فجأة وبسرعة خاطفة بعدد كبير من السيارات، اقتحمت ساحة الانتظار بلا مقدمات فى طابور وتوقفت بشكل منظم لا يدع مجالاً للشك فى هويتها.

فتحت أبواب السيارات فى نفس اللحظة ونزل منها رجال ضخام الأجساد، يرتدون بذلاً داكنة اللون ورابطات عنق، وتحت ستراتهم المفتوحة تظهر بوضوح أسلحتهم النارية المعلقة بأحزمة سوداء تلتف حول صدورهم وخصورهم.

اعتدل رزق فى وقفته ونظر ناحيتهم بفزع، لم يجرؤ على غلق الصندوق، تخشب فى مكانه منتظراً، يا دى المصيبة.. يا خبر أسود على ده يوم!

تقدم أحدهم ناحية رزق على الفور، دقق النظر من تحت نظارته السوداء إلى لوحات السيارة، ثم سأله عن سبب وجوده فى المكان، أجابه رزق متلعثماً، لم يبد الرجل أى انطباع وأشار بوجه جامد الملامح إلى صندوق السيارة المفتوح وسأل عن السبب؟ ثم قال بلهجة آمرة، بعد أن ألقى نظرة خاطفة على الإطار.

– اجلس داخل السيارة، ولا تتحرك حتى انتهاء مأموريتك.

– حاضر سعادتك.

أغلق رزق الغطاء بهدوء وانصاع للأمر، بعد وقت قليل لمح فى المرآة سيارة مرسيدس سوداء فارهة تدخل ساحة الانتظار، وتقف فى حيز محدد بين السيارات الأخرى، دقق رزق النظر فى المرآة بعينيه دون أن يغير وضع رأسه محاولاً معرفة هوية الجالس فى المقعد الخلفى عندما ينزل من السيارة، لكن محاولته لم تسفر عن شىء، فلم يكن فى السيارة سوى السائق والحارس الشخصى الذى يجلس فى المقعد المجاور له.

***

فى طريق عودة أعضاء اللجنة، وعند اقترابهم من سور حديقة القصر الداخلية، فوجئوا بالحراسة عند البوابة الجانبية المخصصة لمرور الأفراد، قال المهندس كمال موضحاً وبشىء من القلق، لابد أن هناك زيارة مفاجئة!

وجدوا رجلين بالبدل الغامقة والنظـــارات الســـوداء والأســـلحة الداخلية التى تظهر من تحت السترات يجلسان بجـــوار البوابـــة، نهضا استعداداً بمجرد اقترابهم، تقدم كمال معرفاً بنفسه وبأعضاء اللجنة المرافقة له، لكن أحد الرجلين تجاهل كلامه وطلب مـــنهم إبراز بطاقات الهوية والعمل؟!

جعلتم منا قوادين على آخر الزمن.. يا ولاد الكلب يـــا أوســـاخ، شعر كمال بإهانة وأخرج بطاقتيه وقدمهما لرجل الحراسة وقـــد ظهر الامتعاض على وجهه، بعد فحص البطاقات قال لهم الرجل معتذراً بلباقة أمنية وهو يشير لهم بالعبور.

– متأسفين يا سادة على الإزعاج.. تفضلوا.

هذه المرة كانت الحالة فى داخل الحديقة مختلفة عما كانت عليـــه فى الصباح، لاحظ الدكتور ممدوح بخبرته القديمة كضابط سابق فى الجيش، أن حالة الاستعداد لدى الجنود فى الثكنة العســـكرية القريبة من البوابة مرفوعة وأنهم يقفون متأهبين وفـــى وضـــع انضباط.

ألقت عملية التفتيش التى تعرضوا لها عند البوابة بظلها الثقيـــل عليهم وهم يمشون داخل ممرات الحديقة، ساروا فى صمت دون أن يتبادلوا كلمة وهم يشعرون بشىء من التوتر، عند اقترابهم من القصر لاحظوا وجود الرجال ذوى البذل الغامقة وهم يتجولـــون فى المنطقة المحيطة به، دارت فى نفوس أعضاء اللجنة الثلاثـــة

تساؤلات بلا إجابة عما يحدث، وعن طبيعة الشخص أو الأشخاص الذين حضروا إلى هذا المكان المنعزل؟ ولماذا يأتون؟ وما الذى يفعلونه هنا؟!

ضغط كمال على ضرسه المسوس وهو يجتهد فى السير نحو مكتبه، يعلم أن عليه المغادرة فور وصوله بغض النظر عن ارتباطه بأى عمل، فيما مضى عندما بدأ استغلال القصر وملحقاته على هذا النحو، كانت هذه الزيارات تحدث بمواعيد مسبقة يتم الترتيب لها، فينصرف الموظفون مبكراً وقد يحصلون على إجازة ليومين أو ثلاثة، ولا يبقى إلا بعض السياس والعمال ممن لا غنى عنهم للخدمة والصيانة وأعمال البستنة، أما الآن فثمة جراءة لا تخلو من تبجح أو تحمل الكثير من الاستهانة..

عند اقترابهم من منطقة حمام السباحة وملعب التنس، ساروا بجوار السور المحيط بها من الخارج، فلم يكن بإمكانهم المرور من داخلها كما حدث فى الصباح، كانت مغلقة تماماً بالحرس، لكن أصوات الضحك والصخب وصياح الفتيات المصاحب لخبطات مضارب التنس كانت تصلهم بوضوح من الحديقة المغلقة؟! طارت كرة تنس عالياً فوق السور وسقطت قافزة على الأرض قريباً منهم، أعقبها ضحكة رجالية عالية وصرخة مرحة لفتاة!

***

رافقهم كمال إلى السيارة وهو يتعجل انتهاء اليوم، ويفكر فى موعده الذى بات وشيكاً مع طبيب الأسنان.

جاء أحد رجال الحرس وألقى نظرة فاحصة على أكياس العينات قبل أن يسمح بوضعها فى صندوق السيارة الخلفى.

تنفس رزق الصعداء وهو يجتاز البوابة الخارجية للقصر، وأطلق للسيارة العنان بمجرد أن وصل للطريق الرئيسى كأنه يفر هارباً.

همس الشاب الثلاثينى متسائلاً.

– من يا ترى هذا الشخص الذى حضر إلى القصر؟

التفت الدكتور ممدوح من المقعد الأمامى وأجاب مبتسماً.

– ومن فى رأيك يا دكتور الذى يستطيع أن يحضر إلى القصر بموكب وحرس ويجلس ويلعب فيه على راحته هكذا؟

– طبعاً أحد أعضاء العائلة الملكية!

ضحكوا ثلاثتهم قبل أن يعلق الرجل الأربعينى وأثر الضحك مازال على وجهه.

– برغم تحول بلدنا للنظام الجمهورى منذ أجيال، مازالت العائلات الملكية موجودة عندنا!

هاهاهاهاها...

***

اتصل مدير المركز بالدكتور عادل وهو فى المعمل، طلب منه بلهجة يشوبها المرح أن يصعد إليه فى مكتبه، استقبله بترحاب

أثار بعض التساؤلات وشيئاً من الشك، استدعى فراش المكتب وطلب القهوة ثم رفع سماعة الهاتف وأخبر مدير مكتبه بأنه فى اجتماع مغلق مع الدكتور أبى خطوة، وأمره بعدم الإزعاج أو المقاطعة؟!

تكلم المدير عن بعض الأمور المتعلقة بالعمل البحثى والمشاكل التى تواجه المركز، وتقصير المسئولين عن إدارة الوزارة، بدا صريحاً فى توجيه اللوم لهم بشكل أدهش أبا خطوة..

بصراحة يا دكتور، نريد أن نحرك الأمور، التقرير الذى قدمته من قبل عن مستوى التلوث فى الثمار أثار ضجة وحرك المياه الراكدة، طبعاً وجود اسمك كعالم كبير له مكانته العالمية أعطى هذا التقرير قيمة، جعلت أعلى سلطة فى البلد تهتم بالموضوع، لكن عندى معلومات غير مؤكدة أو غير واضحة عن وجود بحث حديث لديك يتعلق بنفس الموضوع! وأردت أن أتأكد منك شخصياً؟

– عندى فعلاً بحث جديد.

رد الدكتور عادل على الفور، سحب المدير نفساً عميقاً من سيجارته ورشف رشفة من فنجان قهوته، وهو يرمق ضيفه وعلى وجهه ابتسامة فوز.

– عظيم جداً، أشكر لك صراحتك يا دكتور.

– ليس عندى ما أخفيه يا دكتور وأنت تعلم ذلك.

– نعم بالطبع، نظراً لوجود بعض المتغيرات فى المركز وفى علاقتنا بالوزارة، نحن نريد نشر هذا البحث، نريد أن يعرف الناس الحقائق...

استمر المدير يتكلم بحماس وبلهجة خطابية، مؤكداً على رغبة الدولة فى التعامل مع مشكلة التلوث بجدية وبكل الأساليب العلمية الحديثة، وأن هذا البحث سيكون أحد نقاط الانطلاق و....

– على كل حال البحث تحت أمرك يا دكتور.

لم يمر أسبوع حتى كانت الجرائد قد نشرت تفاصيل كثيرة عن البحث، وتناولت المقالات ما جاء به من بيانات وأرقام بفزع، وثارت موجات من الغضب على الاستهتار والتهاون بصحة المواطنين وخطورة ما يتعرضون له من أمراض فتاكة بسبب مستويات التلوث المهولة فى جميع أنواع الأغذية النباتية والحيوانية..

بعد عدة أسابيع كان الدكتور عادل أبى خطوة قد أصبح شخصية مشهورة، توافد الصحفيون على المركز لإجراء مقابلات معه، واستضافته المحطات التليفزيونية أكثر من مرة، وتم تقديمه باعتباره العالم الكبير والباحث العالمى الذى ضحى بمميزات الحياة فى الغرب وعاد ليخدم بلاده.

استعرضت بعض التحقيقات الصحفية حياته من مختلف جوانبها، الأبحاث التى قام بها والجوائز العلمية التى حصل عليها من

كبرى الجامعات والمراكز البحثية، كان هناك بعض المبالغات والمعلومات غير الصحيحة خاصة فيما يتعلق بالجوائز، الأمر الذى أثار غضبه ورفضه تماماً، اتصل بالصحفيين ليصحح لهم ما كتبوه من معلومات خاطئة، لكنه وجدهم يتعاملون مع الأمر باستهانة، قال له أحدهم ببساطة وبلهجة لا تخلو من سوقية..

– نريد أن نبروزك ونجعلك نجماً يا دكتور؟!

لم تكن مسألة خطأ أو سوء فهم إذن! إنهم يفعلون ذلك متعمدين؟! كانت جميع المقالات التى تناولت البحث تشير بطرق مباشرة وغير مباشرة إلى مسئولية الوزير عن هذه الكارثة البيئية، ولم تلبث الصحف أن فتحت عليه النار وهاجمت سياسته فى الوزارة ووصفته بالديكتاتور الصغير الذى حول إحدى الوزارات المهمة فى الدولة إلى ملكية خاصة له، وبدأت فى نبش ملفات قديمة كشفت عن إهمال وفساد، وأثارت بعض القضايا الأخرى التى تمس سمعته السياسية والأخلاقية.. أيضاً!

الاتجاه الذى سارت فيه الأحداث بعد نشر البحث كان صادماً للدكتور عادل، وبعيداً عن توقعاته، أراد لفت نظر الدولة لهذه المشكلة والعمل على إيجاد حلول لها، هذا ما كان يعنيه فى المقام الأول، لم يخطر على باله أن يستغلوا مجهوده العلمى فى خلافات سياسية لا شأن له بها، لكن ما حدث بعد ذلك كان أشد عليه وأكثر قسوة، فوجئ ببعض المقالات تهاجمه، واتهمه عدد من

أصحاب الأعمدة الصحفية بأنه رجل نصاب يمارس الدجل العلمى، وأنه مجرد باحث متواضع لا قيمة له، وصاحب سمعة سيئة فى مجال تخصصه، ولهذا تم طرده من الجامعة التى كان يعمل بها فى أمريكا، وأنه لم يحصل فى حياته على أى جائزة علمية محترمة! وقال آخرون إنه عميل وجاسوس، وأن البحث الذى قدمه وأثار هذه الضجة بحث مزور، تم إعداده من قبل بمعرفة أجهزة استخباراتية معادية..

أثناء هذه الحملة الشرسة أرسل الوزير يستدعيه إلى مكتبه، لكنه بعد شىء من التفكير قرر أن يستطلع رأى مدير المركز أولاً.

– لا تذهب، ولا تسأل فيه!!

بادره المدير بمجرد أن عرض عليه الأمر، ثم أكمل..

– سوف أمنحك إجازة، وأوقعها الآن، خذ الأسرة واذهب إلى إحدى المدن الساحلية، استجم على شاطئ البحر وابتعد عن هذه المشاكل حتى تنتهى هذه الزوبعة، وعندما تعود سوف تجد أخباراً سارة فى انتظارك.

– أنا فى حاجة إلى إجازة فعلاً يا دكتور.

***

علم عادل أبى خطوة من الجرائد وهو جالس على الشاطئ الهادئ لأحد المنتجعات السياحية البعيدة عن صخب العاصمة

وضجيجها خبر إقاله الوزير، استقبل الخبر المتوقع بفتور، طوى الجريدة واستغرق فى تأمل البحر.

عند عودته من الإجازة وجد مدير المركز قد ترقى لأحد المناصب القيادية الكبرى فى الوزارة، اتصل به شخصياً بعد يومين ودعاه إلى فنجان قهوة فى مكتبه الجديد.

– سيادة الوزير الجديد مهتم بك يا دكتور عادل، ويريد أن يوفر كل الإمكانيات لمشروعاتك البحثية، وعندما عرضت عليه فكرة إنشاء معمل جديد لك على أحدث الطرز العالمية، تفضل بالموافقة عليه فوراً، وسوف نبدأ فى إقامة المعمل قبل نهاية هذا الشهر.

– وهل استطعتم إيجاد مكان بهذه السرعة؟

– المكان موجود، ليس هناك مشكلة.

– أين؟

– سنبنى المعمل على أرض موقف السيارات التابع للمركز.

– ماذا؟ كيف هذا، سوف يتكدس المكان ويختنق ولا يعود فيه موضع لقدم، ثم أين يركن الناس الذين يعملون فى المركز سياراتهم بعد ذلك؟

– سوف يتصرفون لا تقلق، ممكن لهم أن يتركوا سياراتهم فى الشوارع المجاورة!

– لكنها مكتظة ومزدحمة كما تعلم ولا يوجد بها أماكن، ثم كيف سأذهب أنا للمركز بالسيارة، وأين سأتركها؟

– من هذه الناحية لا تقلق، طبعاً سيكون هناك مكان يكفى لثلاث أو أربع سيارات أمام الباب الرئيسى للمعمل، سيخصص لك واحد منها بصفة دائمة..

هكذا..! تزرعون الأنانية فى نفوس الناس وتعلمونهم كيف يكونوا أنذالاً، يفضلون مصلحتهم الشخصية...

أكمل المدير قائلاً دون أن يلحظ الغضب على وجه ضيف مكتبه.

– نسيت أن أخبرك، بالطبع راتبك سيتضاعف ليكون لائقاً بمركزك الجديد.

– لكنى لا أوافق من حيث المبدأ على إلغاء موقف السيارات وبناء المعمل على أرضه، وأرفض هذا الأمر رفضاً قاطعاً..

***

حصل الأحفاد بعد مشوار طويل وشاق استغرق سنوات، على حكم قضائى بتمكينهم من الفيلا وأرضها بالقوة الجبرية، لكنهم آثروا السلامة وفضلوا سلوك طريق أكثر أماناً يبتعد بهم عن مواجهة يعرفون أنها ستكون دامية.

باعوا الفيلا وحديقتها بنصف السعر لشركة مقاولات كبرى، تعمل فى إقامة مشروعات سكنية عملاقة، وتمتلك من الثراء والنفوذ والرجال ما يمكنها من التعامل مع هذا النوع من المشاكل، ولديها القدرة على انتزاع قطعة الأرض الثمينة التى تزيد على ألفى متر مربع، واستخلاصها ولو كانت بين أنياب الأسد.

صدر للكاتب

1- الملك ينزل المدينة – مجموعة قصصية – دار ميريت – 2006

2- خيانة الجسد – مجموعة قصصية – 2008.

3- مصير بيكاسو – رواية – الحضارة للنشر– 2009.

4- مولانا – رواية – الحضارة للنشر– 2010.

(جائزة الدولة التشجيعية فى الأدب لعام 2013)

5- ليلة التحرير – رواية – الحضارة للنشر – 2011.

6- مراكب الليل – رواية – الحضارة للنشر – 2012.

obeikandl.com